عبد الستار الحلوجي

الزبيري .. شاعر اليمن

١٩٦٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

مقدمة

محمد محمود الزبيرى . . .

شاعر فى أمة ، وأمة فى شاعر .

فى شعره يتدفق صوت الشعب اليمنى يشق عباب القرون ويأتينا من بعيد هادراً قويا ثائراً على الظلم والفساد ، منادياً بكرامة الإنسان اليمنى وحقه فى الحرية والحياة .

وفى كتاباته تنساب خفقات قلوب الملايين من أبناء أمته ، وتنصهر آمالها فى الحياة الحرة الكريمة المنزهة عن كل ألوان العبودية والاستغلال والتخلف .

حياته هى حياة اليمن ، وقصته هى قصة نضال شعبه العربى العريق ضد مختلف أساليب البطش والطغيان .

وإذا كان قد قضى الشطر الأكبر من عمره شريداً طريداً ، فقد كان وطنه دائماً يشده إليه ، ويجذبه نحو مأساته المروعة، وينطقه بأعذب الأشعار .

لقد أعلنها الزبيرى ثورة على الفساد فسجن فى وطنه ، ثم خرج منه مهاجراً يضرب فى أرض الله الواسعة . فاستقر به المقام حيناً فى عدن ، وحيناً فى الباكستان ، وحيناً فى مصر . وفى

كل مكان ذهب إليه كان صوته المدوى هو صوت الحرية ، صوت الحياة .

وإذا كان الحكم الإمامى الفاسد فى اليمن قد استطاع أن يبعده عن مسرح الأحداث على أرض وطنه العظيم ، فإنه لم يستطع أن يبعد الناس عن شعره الذى كان بالنسبة لهم ملاحم بطولية خالدة يجدون فيها صوت ضمائرهم وصدى آمالهم وآلامهم .

لقد تخلص الحكام من الزبيرى ، ولكن شعره كان يطاردهم ويتعقبهم فى كل مكان ، يفضحهم ويكشف مخازيهم .

عندى لشرّ طغاة الأرض محكمة	شعرى بها شرُّ قاض فى تقاضيه
أدعو لها كل جبار وأسحبه	من عرشه تحت عبءٍ من مساويه
أذيقه الموت من شعر أسجّره	أشد من موت عزريل قوافيه
وشرُّ هولٍ يلاقيه ويسمعه	صوت الملايين فى شعرى تناجيه

وإذا كانت الثورات السياسية والاجتماعية فى كل عصور التاريخ تسبقها وتمهد لها ثورات أدبية على اعتبار أن الأدباء هم أسرع الناس إلى الإحساس بالظلم ، وهم أقدر الناس على تصوير بشاعته وفداحته وتحريك الجماهير نحو الثورة على كل ما يعوق حركتها ويحول بينها وبين آمالها . وإذا كانت الثورة الفرنسية قد تفجرت نتيجة لكتابات فولتير وروسو ومنتسكيو فى نقد المجتمع

الفرنسي قبلها . فكذلك كانت الثورات اليمنية الثلاث سنة ١٩٤٨ ، ١٩٥٥ ، ١٩٦٢ نتيجة لكتابات الزبيرى وأشعاره التى كانت بمثابة الثقاب الذى أشعل نار الوطنية فى قلوب الملايين من أبناء الشعب اليمنى ، والنافذة التى أطل منها اليمنيون على مجدهم التليد وحاضرهم المرير ، فتحركوا نحو الإصلاح والتغيير .

ومن أجل هذا أصبح الزبيرى بالنسبة لليمن واليمنيين أبا الأحرار وأبا الشعراء بل وأبا اليمن الحديث . فلقد حمل راية الحرية على مدى ربع قرن من الزمان كان من أخصب فترات النضال الوطنى على أرض اليمن الشقيق ، ولم تفارقه الراية إلا عندما فارقته الحياة .

وفى الصفحات التالية نصحب الزبيرى فى رحلة الحياة شاعراً ومناضلا وزعيما . وتاريخ الزبيرى فى تلك الفترة هو تاريخ اليمن ، بل هو قطعة عزيزة غالية وخالدة من هذا التاريخ الحافل الطويل .

ولقد أتيح لى أن أحيا على أرض اليمن فترة ليست طويلة فى حساب الزمن ، ولكنها فى حساب النفس شىء لا حد له ، فقد عشتها بالطول والعرض والعمق جميعاً . وهناك على تلك الربى العالية التى عاش الزبيرى يحلم بها ويجاهد من أجل حريتها وحرية شعبها . هناك على تلك الربى التى ما زالت تردد شعر الزبيرى

وتحتفظ به وديعة غالية ، هناك سمعت عن الزبيرى ما جعلنى أومن إيماناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأن هذا الرجل معشوق الجماهير .

ولست أنكر أن حبي لشعب اليمن قد يكون دافعاً خفيًّا وراء الكتابة عن هذا الشاعر الفذ والرائد العظيم . ولست أنكر أن حب الناس هناك للزبيرى قد ألَّف بينى وبينه قبل أن أقرأ له بيتاً من الشعر أو سطراً من النثر ، وأغرانى بأن أعكف عليه دارساً ومتأملا فيما خلفه لنا من آثار ، فلم يزدنى ذلك إلا تعلُّقاً به وحباً له .

فإلى الشعب اليمنى الشقيق الذى أنجب الزبيرى أهدى هذا البحث وفاء لتلك العِشْرة التى لا تهون .

يوليه ١٩٦٨ — عبد الستار الحلوجى

الظلام الدامس

هناك ، على ربى اليمن، قامت أقدم دولة عربية عرفها التاريخ. الدولة اليمنية الهاشمية التي أرسى قواعدها في سنة ٢٨٠ ﻫ الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وقد تعرضت تلك الدولة في تاريخها الطويل لغزو الأتراك الذي استمر منذ سنة ١٥٣٨ (٩٤٥ ﻫ) حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ حين تركها الأتراك لتبدأ صراعا جديدا مع الاستعمار البريطاني الذي كان قد بدأ يتسلل إليها من الجنوب في عدن منذ سنة ١٨٣٩ .

وظل الحكم الإمامي يتعاقب على اليمن أكثر من ألف عام حتى انتهى في سنة ١٩٠٤ إلى الإمام يحيي حميد الدين ، جدُّ البدر آخر أئمة اليمن ، بل آخر أئمة التاريخ .

في عهد هذا الإمام كانت اليمن تعيش في عزلة عن الدنيا بأسرها فبينما كان ركب البشرية قد جاوز في مسيرته عصر النهضة واقتحم أبواب العصر الحديث ، كانت اليمن ما زالت تعيش في أوهام القرون الوسطى ، وتتخبط في متاهات من الضلال لاحدود لها .

جهلٌ وأمراض وظلم فادح ومخافة ومجاعة وإمام

وكانت كل دقيقة من سنى حكمه الطويل ، طاحونة هائلة تسحق عظام الشعب وتنهش لحمه وتفرى جلده وتترك لها سمة مستديمة فى خلاياه وفى دمه وفى أعصابه وفى صحته العقلية والنفسية وفى قدرته على مواجهة المستقبل البعيد . فالشعب فى عهده حىّ كالميت وميت كالحىّ . ولم يدعه يحيا إلا فى جانب تافه حقير من حياته، وهو أن يجمع له ثروة يخلفها لأسرته . فلم يسمح أن تبنى مدرسة أو مستشفى أو يعبّد طريق، بل لم يكن يسمح للمؤسسات العالمية أن تقاوم وباء من الأوبئة أو مجاعة من المجاعات التى كانت تحصد الألوف من أبناء الشعب الفينة بعد الفينة . كان حليف الجراد والتيفوس والجدرى والمجاعات والظلام والجهل والسجون والأغلال .

وقد ربى فى خلال حكمه المشئوم الطويل جيلا من الناس لا يملكون أى خبرة فى الحياة وفى معايشة البشر إلا خبرة الحركات الغريزية من المشى والقعود وحمل الأحجار والأثقال والانحناء لعبء النير والالتواء تحت السياط والفرار من الوطن لكسب القوت والخوف والنفاق والمحافظة على رمق الحياة فى خدمة عدو الحياة .

وهناك فئة قليلة من الناس كسبت خبرة فى شىء واحد فحسب وهو التفنّن فى وسائل تعذيب الشعب وصناعة القيود له ، ونهبه

عن طريق الرشوة والاختلاس والمحاكمات المأجورة والضرائب الدينية والالتزامات .

وفئة أخرى لم يستطع أن يشملها هذا الشؤم فواصلت حياتها عن طريق الوراثة لتجارب الآباء فى الزراعة والعلوم الدينية والآداب القديمة »[1] .

وهكذا حرم الشعب فى عهد هذا الإمام الجائر من كل شىء . حتى الكتب الحديثة حُرّمت على الناس واعتبر من يضبط متلبساً بقراءتها أو اقتنائها أو تداولها مجرما يستحق السجن والعقاب . واستغلّ الشعور الدينى فى تثبيت دعائم هذا الحكم الفاسد وخلق حالة من الرضى به والخضوع له على أساس أن الأئمة هم العترة الطاهرة سلالة آل البيت .

ولم يكن الدين هو السلاح الوحيد الذى استعمله هذا الإمام لبسط سلطانه على النفوس ، وإنما كان تعميق الخلاف والفرقة والانقسام بين أبناء الوطن سلاحا آخر أشد فتكا وأعظم نكراً. فوجد انقسام دينى يقسم اليمنيين إلى زيدية وشافعية ، وصراع قبَلى يجعل كل قبيلة تعادى الأخرى وتقاتلها ، والغنيمة النهائية للإمام . وكثيرا ما كان الإمام حين يغضب على قبيلة من القبائل يبيح أرضها وأموالها لقبيلة أخرى أقوى منها . ولا تكاد القبيلة

---

(١) مأساة واق الواق : ص ١٣٥ — ١٣٦

القوية تخلصه من تلك القبيلة التى عصته أو تمردت عليه حتى يسلط عليها قبيلة أخرى أشد منها قوة وأكثر جمعاً ليأمن بطشها وسطوتها .

وهكذا كان الصراع القبلى والصراع الدينى هما نمط الحياة السائد على أرض اليمن ، وكان سوط الجلاد يلهب ظهور الجميع فتكتمل بشاعة المأساة بما كان يمارسه الإمام من ألوان الظلم والبطش التى يستعين بها على إخضاع الشعب وإذلاله .

وأمام هذا الشعب المتخلف الممزق، وهذا الحكم الفاسد الجائر، كان لابد من محاولة للإصلاح والتغيير . وبدأت طلائع الفجر الجديد تلوح فى الأفق حين أتيح لفئة من الشباب أن تخرج من عزلتها وأن تفتح عيونها على النور خارج بلادها ، فعادت إلى وطنها وقد تشبعت روحها بما رأت وما سمعت . وعلى عاتقها كانت تقع مسئولية ضخمة هى النهوض بالمجتمع الذى درجت منه والأخذ بيده ليستشرف تلك الآفاق الجديدة الرحبة المشرقة بالنور والمعرفة .

ومن بين طلائع هذا الشباب كان أعضاء البعثة العسكرية الذين تلقوا دراستهم فى العراق وعادوا بأفكارهم الحديثة إلى اليمن فى

سنة ١٩٣٨[1] ، وفئة أخرى هبطت مصر إبان الحرب العالمية الثانية فراراً من الإرهاب أو طلباً للعلم، فاحتكت باليقظة الوطنية والفكرية ، واستلهمت منها وتأثرت بها . ومن هذه الفئة كان شاعر اليمن وزعيم الأحرار محمد محمود الزبيرى الذى بدأ حياته — كما يقول — «طالب علم ينحو منحى الصوفية فى العزوف والروحانية ، ولم يستطع أن ينتزعه من هذه الأجواء غير نشدان الشعر والأدب[2] . ثم أتيح له حظ من التعليم فى كلية دار العلوم بالقاهرة ، وكأنما هاله ما رأى فى مصر من مظاهر الحضارة والعمران، ، وأفزعه أن تتخلف اليمن وأن تبقى فى ظلام القرون الوسطى ، فلم يحتمل حياة القاهرة وأضواء القاهرة »[3] .

كلما نِلتُ لذة أنذرتنى فتلفتُّ خيفة من زمانى
وإذا رُمت بسمة لاح مرأى وطنى فاستفزنى ونهانى

وعلى الرغم من أن التاريخ لم يحفظ لنا كثيراً عن حياته فى تلك الفترة ، إلا أننا نجد له فى سنة ١٩٤٠ قصيدة طويلة قالها فى حفل ضم الطلاب العرب ودعا فيها إلى وحدة للأمة العربية تقوم على الصفاء والإخلاص وتتنزه عن الغش والنفاق . وحدة

---

(١) وكان منهم أحمد الثلايا الذى قاد انتفاضة الجيش سنة ١٩٥٥ وعبد الله السلال الذى قاد ثورة سنة ١٩٦٢ .

(٢) ثورة الشعر ص ١٠

(٣) مقدمه «صلاة فى الجحيم» لمحسن العينى .

كانت تتراءى له حلما جميلا وطيفا خلابا يعيد للعرب مجدهم وسؤددهم . يقول [1] :

طال الفراق وطال منه شقاؤنا   في حمأة الأضغان والأحقاد
وتناست الدنيا روائع مجدنا   في سالف الأحقاب والآباد
إن لم تزد فيه طريفا معجبا   فلقد أضعنا منه كل تلاد
عشنا كما شاء العدو معاشنا   وكما أراد فكان شر مراد
عدد عديد غير أن ألوفنا   لا ترتقي عن رتبة الآحاد

ويشير إلى الحلف العربي الذى انعقد فى بغداد فى أبريل سنة ١٩٣٦ بين السعودية والعراق وانضمت إليه اليمن فى سنة ١٩٣٧ ولكنه ظل حبراً على ورق فيقول :

لقد اكتفوا منه بعهد يراعة   وولاء قرطاس وحلف مداد
لاينفع الجرحَ الخطيرَ ستارُه   مادام ذاك الستر فوق فساد
إن الضِّمادَ على فساد جراحنا   أنكى لنا من خنجر الجلاد

ثم يتعرض لحرية الفكر وإخلاص النية كشرط أساسى للإصلاح والنهوض فيقول :

ولكم نرى أدب الشباب مُداجياً   يبدو على خوفٍ من الأرصاد

(١) فى قصيدة « جماعة الطلبة العرب » التى نشرت بديوانه « صلاة فى الجحيم » .

فمقالةٌ مذعورةٌ وقصيدةٌ مصفرة الأوزان والأوتاد
ومسبِّحٌ بالظلم يعبد ظالما فيُعَد فى النُّساك والعُباد

ويصرخ من أعماقه :

خلوا القيود عن الضمير فلم يكن مثوى الضمير الحيِّ فى الأقياد

ثم يقول :

ولقد نزعت من الضمير قصيدةً هى صوت إيمانى وصك جهادى
لو يُصبغ الإنشاد لون خديعةٍ لأنفتُ عن نغمى وعن إنشادى
لو خالط الأنفاسَ شوبُ تملق لحبست أنفاسى عن الترداد
تسعى القوافى لى فلا أحنى لهـا قلماً إذا جاءت بدون مرادى
وأكاد أرفضها إذا ما لم تـكن نزلت إلىَّ على رَوِىٍّ فؤادى

وفى تلك الأبيـــات الأخيرة بالذات تطالعنا ملامح بارزة لشخصية الزبيرى المجاهد فى وضوح وصراحة وبسالة ، المناضل فى شجاعة وأنفة وكبرياء . وهى ملامح لم تتغير على مدى الأيام بل إننا سوف نرى أنها كانت تزداد مع الزمن تأصلا واستقراراً .

وفى حوالى سنة ١٩٤١ يعود الزبيرى إلى وطنه بهذه الشخصية ، بهذه الروح التى لا تعرف النفاق ولا الرياء ولا الاستجداء ، فيشفق عليه الأصدقاء من أن يصيبه بطش الحكام ، وينصحونه بالصمت والإغضاء عن آثام الحكم الفاسد حتى يعيش فى سلام ،

فيسخر منهم ومن نفسه أشد السخرية فى قصيدة « مصرع الضمير »[1] التى يقول فيها :

مت فى ضلوعك ياضمير وادفن حياتك فى الصدور
إياك والإحساس فالدنـــيا العريضة للصخور
لا تطمئن إلى العـدالة فهى بهتان وزور
لا تنطقن الحق فهـــو خرافة العصر الغرير
لا تنتصر للشعب إن الشعب مخلوق حقير
لا تطمحن فلست أكثر فى الحياة من الحمير
لن ترتدى غير اللجـام ولن تذوق سوى الشعير

ويمضى على هـذا المنوال حتى يغوص إلى قاع المرارة والأسى فيقول :

آهٍ لمصرع أمـة دفنت وما برحت تسير
كانت أسود الغـا ب وهى اليوم دود فى القبور

ثم يقول :

إن الإمامة عصمة عظمى تجلُّ عن النـكير
والأمر بالمعروف كفر بالمليـــــك وبالوزير
لا تتركوا قلماً يسطر أو دماغاً يســـتنير

---

(١) ديوان « صلاة فى الجحيم ».

لا تأمنوا العقل المفكر فهو خوان كفور
لا تنشروا العرفان إلا في المبادىء والقشور
ودعوا لنا شعبا نحنّطه بأوهام العصور
ونذيقه نوماً يغط به إلى يوم النشور

وكأني به ينعى أمته في هذه الأبيات التي تصور لنا المأساة في أبشع صورها . شعب يعيش في ظلمات الجهل ، ويتخبط في صحراء الوجود على غير هدى من علم أويقين .

فمَنْ ذا الذي يمد يده لينتشله مما هو فيه ؟ ومن أولئك الذين يتقدمون الصفوف ليحملوا أمامه المشاعل التي تضيء له طريق الحرية والخلاص ؟ مَنْ غير الزبيري وأمثاله ؟

لقد عاد الزبيري إلى وطنه ليحمل الراية زعيما وطنيا ورائدا سياسيا وشاعرا عملاقا يصب في شعره صوت الحناجر وعصارة الأفئدة التي تنتشر في جبال اليمن وسهوله ووديانه. استمع إليه يقول:

« وتعشقت الحياة الأدبية وهمت بها هياماً ، ولم تستطع أن تصرفني عنها وتصدني عن التفرغ لها إلا المعارك النضالية السياسية التي تمخضت عنها الحياة الأدبية . فروحانيتي عليها جنى الأدب ، وأدبي عوقب بالسياسة ، فزجّت به في المعارك المريرة الطويلة المدى وانتقمت منه شر انتقام ...

وشعرى أو معظمه تطغى عليه السياسة سواء ما كان منه مدحاً وما كان رثاء وما كان ثورة وما كان شكوى أو ما كان غير ذلك . وهذا هو المنطق الواقع ، فإن حياتى كلها ليست حياة شخصية منفكة عن الحياة العامة بأى حال من الأحوال . . .

كنت أحس إحساساً أسطورياً بأنى قادر بالأدب وحده على أن أقوّض ألف عام من الفساد والظلم والطغيان . لست أدرى أذلك من تخريف الخيال الشاعرى الجامح أم هو ومضة من ومضات الذخر الصوفى السجين فى أعماقى »[1].

ولقد كانت أمام الزبيرى تجربة الرعيل الأول من هذا الجيل حين حاول أن ينقل أفكاره وآراءه الجديدة إلى الشعب الذى لم يكن قد رأى النور قط ، فاستنكرها الشعب واعتبرها خروجاً على التقاليد الموروثة ومثاراً للبدع والضلالات . وكان السجن هو المكان الطبيعى لتلك الصفوة من الشباب الذى لحقته لعنة الشعب والحكام جميعاً .

ومن أجل هذا كان لابد من مدخل جديد تنفذ منه محاولات الإصلاح إلى قلوب الناس وعقولهم . ولم يكن عسيراً أن يدرك الشباب أن الحكم الفاسد فى اليمن يستمد من الدين قوته وولاء

(١) أصلى مع الشعر ، ص ١٠ — ١١ من ديوان « ثورة الشعر » .

الشعب له ، فلماذا لا يكون الإصلاح عن طريق الدين ؟ ومَنْ ذا الذى يستطيع فى مثل ذلك المجتمع أن يتصدى لفكرة تقوم على أساس من العقيدة الدينية التى يحكم باسمها الحكام ويطيعهم من أجلها الشعب ؟

ومرة أخرى تصطدم المحاولة بالإمامة ، وتنفتح أبواب سجن الأهنوم فى سنة ١٩٤١ (١٣٦٠ هـ) لتتلقى طلائع الفجر الجديد ومنهم الزبيرى ، وتلقى بهم فى ظلماته السحيقة .

وفى السجن يستبين للأحرار أنهم لا بد أن يفتحوا صفحة جديدة فى تاريخ نضالهم ضد الحكم الفاسد ، صفحة قوامها اللين والحسنى وإظهار السمع والطاعة للحكام و « التطامن للعاصفة » على حد تعبير الزبيرى[1] . وكان الشعر هو الصوت المعبر عن هذا الرضى مدحاً واستعطافاً ، و « المجس العميق الدقيق الذى تغلغل إلى أغوار نفس الإمام وأعطانا المقاييس والمعايير لتقدير الحد البعيد الذى ذهب إليه الطاغية من التأله والقسوة والاستعلاء والإصرار »[2] .

ولقد نجح الشعر فعلاً فى إطلاق سراح البعض بعد تسعة أشهر

---

(١) ثورة الشعر : ص ١٩

(٢) ثورة الشعر : ص ٢٤

وإن لم ينجح فى إقناع الحكام بأى تطور أو تجـديد . وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى الإيمان باستحالة تغيير الإمام يحيى عن غير طريق القوة . ويصف لنا الزبيرى تلك المرحلة النضـالية فيقول :

« إن محاولة إقناع الإمام يحيى بواسطة الفكر الدينى ثم المدائح الشعرية التى قُـدِّمت إليه فى هـذه المرحلة التجريبية كلها تعتبر وثائق تأريخية تدل على المحاولات الجادة لإقناع الإمام بالحكمـة وبأرقِّ الوسائل الودية كى يسمح بالتطور الإصلاحى المنشود . ولايستطيع أحد فى المستقبل القريب أو البعيـد أن يزعم بأن الإمام يحيىعارض الإصلاح خوفاً على الدين ، فإن التجربة قدمت نفسها كدين ، أو يزعم بأنه تشدد واستبد وأصرّ على طغيانه لأنه صُدِم شخصياً أو جُرِح كبرياؤه . فالشعر شاهد حىٌّ سيبقى برهاناً تاريخياً على أن الإمام يحيى — الذى لقى مصرعه بعد سنوات قليلة من المدائح والاستعطافات — كان قد أُعطى أكثر مما يستحق من الثناء والاحترام ، وأتيحت له الفرصة ووُفرت له الكرامة وقُـدِّمت إليه الأفكار فى جوٍّ من الود والإكبار لايدع له مجالا للتعلُّل والاعتذار ، وأنه بإصراره — رغم كل ذلك — وعناده واستبداده يعتبر المسئول الذى جعل الخلاص منه بالقوة هو الطريق الوحيد الذى لاطريق سواه . »[1]

---

(١) مصدر اليقين فى الثورة ، ص ٢٠ — ٢١ من ديوان « ثورة الشعر » .

وفى الوقت الذى فقد فيه الشباب الأحرار كل أمل فى صلاح الإمام يحيى ، بدأت تلوح لهم بارقة من الأمل فى ابنه وولى عهده الأمير أحمد . فخرج الزبيرى من السجن متجهاً إلى حيث يقيم الأمير فى تعز ، ومبتدئاً بذلك فصلا جديداً من فصول حياته النضالية فى السياسة والأدب .

السراب الخادع

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الزبيرى لم يتألق نجمه كشاعر عملاق إلا عندما اتصل بولى العهد فى تعز . فقد كانت تصدر عن الأمير أحمد آراء تقدمية تساير آراء الشباب الثائر ، وكان من الذكاء بحيث لم يكن يجد غضاضة فى أن يعلن أمام الناس ضيقه وإنكاره لسياسة أبيه وظلمه وتعسفه . ولعل هذا هو ما أغرى الزبيرى وأمثاله بأن يتعلقوا به ويجدوا فيه خيطا من الأمل يجب أن يحرصوا عليه ولا يتركوه يفلت من أيديهم . يقول الزبيرى :

« فى عام ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) كنا نرى فى هذا الرجل بطلا فى وقت كنا نحن وشعبنا فى أشد العجز عن خلق الأبطال وصنع البطولات . كان ولى العهد أحمد رمز الأمل ومناط الرجاء فى القضاء على أسباب الفساد المعروف عن حاشية الإمام يحى . وكان رجال هذه الحاشية يرتعدون من المستقبل كلما تذكروا أحمد حتى لقد أرسل عصابة من رجاله وحرسه فأحرقوا قصر أحد رجال الحاشية بعد ما اشتد تذمر الناس منه وهو السيد على لطفى .

ومن جهة أخرى فهو البطل الأسطورى فيما كانت تزعم له

البلاد كلها من مواقف بطولية خيالية فى حروب عديدة . ومن ثم كانت الأنظار تتجه إلى بطولته كلما تذكر الناس الجنوب اليمنى المحتل وحاجتهم إلى بطل يحرره من الاحتلال الإنجليزى . . . ولقد وجدنا فى هذا الرجل العجيب فعلا ما يخدع وما يذهل ، وتعاظمت فى أنظارنا ظواهر تصرفاته ومطامح شخصيته وألغاز تصريحاته الرمزية التى توحى بالتذمر من رجعية أبيه وفساد حكمه . . .

وعلى هذا الأساس قدمت إليه عصارة غالية من شعرى ، أنفخ فيه روح الطموح والبطولة ، وأمنحه حماس الثقة ، وأحركه بأحلام الشعر وأشواق المجد ، بل وأحلم بأنه قد أصبح بطلا فى دنيا فنى وعالم خيالى . ولم يكن ذلك لأنى أطلب منصبا أو مغنما شخصيا ، فلم أتقلد منصبا ولم أقبل وظيفة ولم أكسب منه مالا ، وإنما أتلمس لبلادى منطلقا لمجد ، وسبيلا لتطور وإصلاح » [1].

وإن شئت مزيداً من الإيضاح والتأكيد فاقرأ هذه الأبيات التى يخاطب بها الزبيرى ولى العهد لترى كيف كانت تتراءى صورته للشباب الأحرار مشرقة مفعمة بالحب والأمل والرجاء :

---

(١) مصدر اليقين فى الثورة ، ص ٢٨ — ٣٠ من ديوان « ثورة الشعر » .

خذ بالقلوب فى يديك زمامها والقلب يُقرن بالولاء ويُوثق
وانشر ضياءك فى سبيل حياتنا فمسيرنا فى غير نورك موبق
طِرْ حيث شئت بنا فإنا معشر سنطير إثرك فى العلى ونحلق
كن كيف شئت لنا فإن مصيرنا بيديك والدنيا إليك تحدّق
ياحامل الشعب الكبير بقلبه الشعب فى طيات قلبك يخفق
جدد له عصر الجدود بعزمة لومست الماضى لجاءك يشرق
لاتبنه حجراً ولكن فيلقا ينساب فيه للمنايا فيلق [1]

فالشاعر يصب فى هذه الأبيات عصارة قلبه وقلوب الملايين من أبناء أمته المتعطشة إلى الخلاص من الظلم والظلام ، وإلى الانطلاق فى طريق التقدم والرخاء بكل ما أوتيت من قوة وسلطان .

ولقد ظل الزبيرى يضرب على هذا الوتر بالذات ويستخرج منه أنغاماً حلوة عذبة . ولم يكن يمس فساد الحكم إلا مسّا رقيقاً كلما سنحت له الفرصة . ففى سنة ١٩٤٣ اجتاح مرض التيفوس اليمن بأسرها ، فمضى يحصد النفوس حصداً دون أن يجد فى طريقه طبا يقاومه أو يعوق تقدمه . ومع وقفة عرفات سنة

(١) ثورة الشعر : ص ٣٣ .

١٣٦٢ ﻫ (٧ ديسمبر سنة ١٩٤٣) فقد اليمن عالما من أبرز علمائه وأخلصهم لله والوطن وهو القاضى يحيى بن محمد الإريانى رئيس الاستئناف ، فشيعته الأمة بأسرها ورثاه الزبيرى بقصيدة طويلة رائعة قال فيها :

ياحاملين له غضوا نواظركم فربما اختطفته عنكم الحور

عزّوا البلاد فقد فاضت حشاشتها
واندكّ منحطماً فى جرحها الطور

وضج خاطرها المشبوب فى دمها
وكاد ينفخ فى أعراقها الصور

والدمع يغلى بأجفانٍ مقرّحةٍ
كأنه الجمر فارت عنه تنّور

والقلب يلتاع فى الأحشاء مضطربا
كأنه أسد فى السجن مأسور

يذوب كرباً بقبرٍ من جوانحه
تموج فيه الدواهى والمحاذير

غذّاه يحيى بشمس العلم فانطفأت
واليوم جرّعه الأهوالَ دَيجور

يحيى مصابك هدَّ الشعب وانحطمت

قُواه وهو لعمرى فيك معذور

علَّمته الخلق الأسمى وكنت له

كمصحف فيه تحذير وتبشير

نزَّهت كفك عن سُحتٍ قد انغمست

فيه الأكفُّ الأثيمات المشاهير

يرون قطع يمين اللص جائعةً

وحظ أيديهمُ لثمٌ وتوقير

ذنب الصعاليك مخزاةٌ ومعصيةٌ

وذنبهم فيه تهليل وتكبير

لايؤخذون بما غلوا وما اختلسوا

كأنما العلم للإجرام تبرير [1]

وهو هنا يشير من طرف خفى إلى فساد الحكم وإلى الاستغلال والسلب الذى « انغمست فيه الأكف الأثيمات المشاهير » دون أن تجد رادعاً يردعها ، وكأنما الإثم ذنب لاتعاقب عليه إلا الشعوب لأنها هى الآثمة دائماً ، أما الحكام فإنهم لا يأثمون ، وإن أثموا فليس للشعب إلا أن يهلل ويكبر ويلتمس الرضى والبركة بتقبيل الأيادى .

* * *

(١) صلاة فى الجحيم : ص ٨٢ — ٨٤

وفى رحاب الأمير قضى الزبيرى ما يقرب من ثلاثة أعوام يردد على مسمعه تلك القصائد الوثنية [1] التى تمثل دور الطفولة الوطنية ، حتى استبان آخر الأمر أن « هذا الشبل من ذاك الأسد » وأن ولى العهد لا يُرجى منه خير كثير . فلم تكن تلك القصائد والأشعار تهز طموحه غير ساعات لا يلبث أن يثوب بعدها إلى ما رسخ فى أعماق ضميره من استبداد وطغيان كشف عن حقيقته حين قال قولته المشهورة : « والله لأروين سيفى من دماء هؤلاء العصريين» .

« وانقلب ولى العهد على مر الأيام إلى طبيعته ، وخلع أزياءه المسرحية ، وصرح على الملأ بأنه سيلقى الله ويده مخضبة بدماء الأدباء ، وأن من يقرءون كتب طه حسين والعقاد والرافعى سيلقون الموت . وقد تعاظم علينا هول المفاجأة عندما تأكد لنا أن هؤلاء الحكام يكرهون النور والتجديد حتى ولو كان فى صورة شعر يمدحهم ويمجدهم ويتغنى بآمال الشعب فيهم » [2] .

وهكذا مزق ولى العهد القناع عن وجهه ، وقطع آخر خيط من الأمل كان يتعلق به الجيل الثائر ، وبرزت أمام الثوار حقيقة ناصعة لم يَعُد فيها شك ولم يكن منها مفر ، وهى أن طريق الأئمة

---

(١) هذا التعبير استخدمه الزبيرى نفسه فى وصف شعر تلك المرحلة من حياته. انظر : ثورة الشعر : ص ١٢١

(٢) ثورة الشعر : ص ٣٦

طريق مسدود أمام كل محاولة للإصلاح فى أى صورة من الصور وعلى أى شكل من الأشكال .

ولم يكن من الحكمة أن يعلن المصلحون ثورتهم على ولى العهد كما سبق أن أعلنوها على أبيه ، فما زالت اليمن مليئة بالسجون والأغلال ، وما زال الشعب البائس الحزين فى حاجة إلى كل جهد مخلص لتحريره من الظلم والطغيان . ومن أجل هذا كان الفرار

الفرار

فر الزبيرى ومن معه إلى عدن فى فبراير سنة ١٩٤٤ (صفر سنة ١٣٦٣هـ) . وكان فى مقدمة من شدّ الرحال معه إلى هناك أحمد نعمان وزيد الموشكى وأحمد الشامى . وفى مفترق الطرق بين ماضى الحياة ومستقبلها ، بين الوطن العزيز الذى خلّفه وراءه يعيش مأساته فى حزن عميق وصمت مريع ، وبين الوطن الجديد الذى يفتح له صدره ويحتضنه فى حُنُوٍّ وإشفاق ويقدِّر قسوة ظروفه ونُبل مقصده ، يقف الزبيرى ليلقى على سمع الزمان قصيدته التى يستهلها بقوله :

خرجنا من السجن شُمّ الأنوف ... كما تخرج الأسد من غابها
نمر على شفرات السيوف ... ونأتى المنية من بابها
ونأبى الحياة إذا دنِّست ... بعسف الطغاة وإرهابها
ونحتقر الحادثات الكبار ... إذا اعترضتنا بأتعابها
ونعلم أن القضا واقع ... وأن الأمور بأسبابها

وفيها يقول :

ستعلم أمتنا أننا ... ركبنا الخطوب حناناً بها
فإن نحن فُزنا فيا طالما ... تذل الصِّعاب لطلابها

وإن نلق حتفاً فيا حبذا   المنايا تجيء لخُطّابها

ويشرح سبب خروجه من السجن الكبير فيقول :

أنفنا الإقامة في عصبة   تُداس بأقدام أربابها

وسرنا لنُفلت من خزيها   كراماً ونخلص من عابها

ويمضى مفنداً مزاعم الأئمة وحقهم الإلهى فى الإمامة ، ومفصلا مظاهر التعسف والبطش التى كان المواطنون يلقونها من حكامهم حتى ليقول :

ولو عاملوا مثلنا السائمات   لداست حِماهم بأعقابها

ويخاطب الإمام الظالم قائلا :

فيا ملكاً لجَّ فى بطشه   وداس البلاد وأخنى بها

ودب لأمته فى الظلام   دبيب اللصوص لأسلابها

وذرّ الغبار بأجفانها   وصب السموم بأعصابها

وقال لها مصر أرض الفجور   تفيض الخمور بأبوابها

وبغداد عاصمة الملحدين   ومكة نَهْبٌ لأعرابها

وما الأرض إلا لنا وحدنا   ولكنهم غالطونا بها

نهضتَ لتخريب عمرانها   وقمت لتحطيم ألبابها

ووطدت عرشك فوق القبور   وأزعجت رمَّة أصحابها

وشيدت مملكة للفتنا   تقوم القيامة من بابها

ألم تخْشَ من أمة أصبحت إليك تكشر من نابها
وتزأر غضبى زئير الأسود وأنت الملوم بإغضابها
ستلقى مغبة ما قد صنعت وتجنى المخالب من غابها[1]

وهو فى هذه الأبيات يبين كيف فرض الأئمة على اليمن عزلة قاتلة عن طريق إيهام الشعب بأن الدول العربية تمتلئ بالفسق والفجور والإلحاد والنهب والسلب وأن الخير كله معقود بنواصى الأئمة ، خلفاء الله وظله فى الأرض .

* * *

ولم يكن عجيبا فى تلك المرحلة أن تكون قضية اليمن هى الشغل الشاغل والنغمة الطاغية على كل أشعار الزبيرى وأقواله . فلم يكد يمضى وقت قصير على وصوله ورفاقه إلى عدن حتى فُجع أحمد نعمان بوفاة زوجته التى خلفها وراءه فى الوطن الحزين ، فاهتزت مشاعره لفقد رفيقة حياته وأم أبنائه وهو نازح عن دياره يخوض معركة النضال من أجل تحرير وطنه . وأمام هذا المصاب الفادح والخطب الجلل وقف الزبيرى إلى جانب صاحبه يطلب إليه أن يرتفع على آلامه وأن يضع نهاية لدموعه وأحزانه قائلا :

كفكف الدمع واعتصم بالعزاء ليس فى الحرب فرصة للبكاء

(١) من ديوان « صلاة فى الجحيم » .

قد تصديت للجهاد فلا تأبه لنيل يأتيك فى الهيجاء
وتعرضت للزمان فلا تجزع لإحدى أيامه السوداء
واحتسب كلما أصابك لله وواجه قضاءه بالفداء
وتبسم إلى الخطوب فكم فى الخطب من سؤدد ومن علياء
أنت للأمة التى علقت فيك عظيم المنى كبير الرجاء
أودعت فى يراعك العضب ماقد أفرغته من أدمع ودماء
حمّلت قلبك الجراح التى تصرخ فى البائسين والضعفاء
أرسلت فيك صوتها الثائر الغضبان ضد الحكومة الهوجاء

وفى نغمة مفعمة بالأسى والألم ، تعرض الزبيرى لموقف الفراق يوم همّ الزوج بالرحيل عن آله ودياره، وكيف أن زوجته

ذكرت واجب الجهاد فردت دمعها شامخاً من الخيلاء

ويختم الزبيرى مرثيته مخاطبا صديقه ورفيق جهاده :

فامض يا قائد الشباب إلى الحق ولا تكتئب من البأساء
خلّ أمر الفقيد فى ذمة الله جزيل الثواب جم العطاء
وتذكر مصير أمتك الكبرى على هوة الردى والفناء
أىّ قبر يُورى رفات بنيها أى دمع يفى لهم بالعزاء
كم يظل الإمام يحفر للناس قبوراً بكفه الشلاء
كم تقاسى البلاد من قلبه القاسى وتلقى فى ظله من شقاء
ثلث قرن لم يبرح اليمن الميمون منه فى ليلة ليلاء

تعجز الشمس أن تشعّ على أفكاره السُّود لمعة من ضياء[1]

فهو يحاول أن يصبّر النفس وأن يردها إلى الثقة والإيمان بالله ، لأن هذا الإيمان هو مصدر كل طمأنينة وهو الجدار المنيع الذى يعصم الإنسان من السقوط كلما صدمته الحياة صدمة عنيفة قاسية . ويحاول فى الوقت نفسه أن يذكّر صاحبه بأن هناك أمة بأسرها تموت ، وأنه إنما فارق أسرته الصغيرة من أجل أمته الكبيرة ، فليس كثيراً أن يفدى بزوجته هذا الوطن كله .

* * *

ولم يكن الزبيرى يكفُّ عن تصوير بشاعة الحكم الظالم فى بلاده ، فهو لايبرح يسلط عليه أضواء كاشفة تبرزه أمام الناس مخيفاً مفزعاً تقشعر منه الأبدان . وكانت صور التعذيب والبطش التى يمارسها الحكام ضد الشعب تستغرقه وتطلق لسانه بأروع الأشعار . ولعل من خير الأمثلة على ذلك تلك الصورة المؤلمة التى خلدها الشاعر لستة من خيرة شباب اليمن[2] اعتُقلوا فى أواخر سنة ١٩٤٤ (ذى القعدة سنة ١٣٦٣ هـ) وسُلكوا فى سلسلة واحدة ، وسيقوا مشياً على الأقدام من صنعاء إلى تعز ، الأغلال

---

(١) ديوان «صلاة فى الجحيم» .

(٢) هم : جازم الحروى وعبدالسلام صبره واسماعيل الأكوع ويحيى السياغى وأخوه حمود السياغى (وكلاهما أعدمه الإمام) ومحمد السياغى .

فى أعناقهم، والسياط من ورائهم ، والمسيرة الطويلة الأليمة تستغرق بهم أسبوعاً كاملا بين الجبال والشعاب . استمع إليه يقول :

طافوا بهم حول صنعا يطمسون بهم
حقاً يضيق به الطاغى ويخشاه
وطوّقوهم جميعاً ضمن سلسلة
من الحديد يهول الناس مرآه
يَكب بعضهم بعضاً بمنكبه
وتلتقى أرجل منهم وأفواه
إذا تحرك فيهم واحد صرخوا
واستفحلت فيهم الآلام والآه
كل امرىء منهم خطبٌ لصاحبه
يؤذيه وهو برىء حين آذاه
ضاقت رقابهم فى الغل واحترقت
أقدامهم من رحيل طال منآه
إذا استغاث أسير من متاعبه
لبّته بُندقة الجندى ورجلاه
فنٌّ من البطش والتعذيب مبتكَر
خليفة الله للأجيال أهداه

ويخاطب الإمام الطاغية فيقول :

أفكارك السود لم تترك لشعبك من
ضوءٍ تجول به فى الأرض عيناه
وقد تمكنت أن تقضى قضاءك فى
شعبٍ يسير بليلٍ ما تعداه
تسومنا الخسف حتى ليس فى يدنا
إلا حديد بلا ذنب حملناه
أرض الجدود التى فيها دم عبِق
من ريحهم لم تعد مما ورثناه
نسير فيها عبيداً أو نغادرها
أذلةً ، يا لبؤسٍ قد لقيناه

ويمضى فى قصيدته إلى أن يقول :

تجلُّداً أيها الأحرار إن لكم
وِتراً عزيزاً علينا ما دفنّاه
إنا وهبنا شباب العمر للوطن الدا
مى وإنقاذ عطشاه وغرقاه
لابد أن تدركوا يوم الخلاص وما
بدٌّ لنا أن نلاقى ما طلبناه [1]

---

(١) صلاة فى الجحيم .

والحق نقول إن عدن كانت تربة خصبة أمدت الحركة الوطنية بكل أسباب النماء . فتشكل حزب اليمنيين الأحرار ليحمل المشعل ويتقدم صفوف الجماهير فى زحف مقدس نحو التحرر والخلاص .

ولقد كان مولد هذا الحزب بمثابة بعثٍ لأمةٍ بأسرها . وأمام ركب الخالدين ، وقف الزبيرى ليلقى قصيدته [1] التى يقول فيها :

سجِّل مكانك فى التاريخ يا قلم
فها هنا تُبعث الأجيال والأمم
هنا القلوب الأبيَّات التى اتحدت
هنا الحنان ، هنا القربى ، هنا الرحم
هنا العروبة فى أبطالها وثبت
هنا الإباء ، هنا العليا ، هنا الشمم
هنا الكواكب كانت فى مقابرها
واليوم تشرق للدنيا وتبتسم
هنا البراكين هبت من مضاجعها
تطغى وتكتسح الطاغى وتلتهم
لسنا الأولى أيقظوها من مراقدها
الله أيقظها والسُّخط والألم
شعبٌ تفلت من أغلال قاهره
حرًّا فأجفل عنه الظلم والظُّلَم

(١) صيحة البعث . ديوان « صلاة فى الجحيم » .

نبا عن السجن ثم ارتد يهدمه
كى لا تكبّل فيه بعده قدم

قد طالما عذبوه وهو مصطبر
وشدّ ما ظلموه وهو محتكم

لم يكفهم أنه عبدٌ وأنهم
أربابه يحسبون الله دونهم

أذاب مهجته فيهم فما اعترفوا
بها ولا قنعوا منها ولا سئموا

* * *

إن القيود التى كانت على قدمى
صارت سهاماً من السجان تنتقم

إن الأنين الذى كنا نردّده
سراً غدا صيحة تصغى لها الأمم

والحق يبدأ فى آهات مكتئب
وينتهى بزئير ملؤه نقم[1]

وما أحسب أن قصيدة كهذه تحتاج إلى تعليق . غاية سامية يلتق عندها الأحرار فداءً وجهاداً فى سبيل الله والوطن، وصيحة

(١) ديوان « صلاة فى الجحيم » .

عاتية تنطلق من أعماق قلوب أدمتها الجراح على مر السنين والأيام، فتصغى لها الآذان وتتلقفها القلوب بكل تقدير وإجلال .

* * *

وفى عدن اتخذ الزبيرى ورفاقه من جريدة «فتاة الجزيرة» مرتعاً لأقلامهم ، فكان الشعر والنثر يصبان معاً فى مجرى واحد يحفر فى القلوب قضية بلادهم أو مأساة بلادهم بتعبير أدق .

وكأنما وجد الزبيرى فى شعره بوقاً ينفخ فيه فيحدث ضجيج هائل يهز مضاجع الغافلين من أبناء أمته، فنراه فى سنة ١٩٤٥ يطلق من عدن «صرخة إلى النائمين» [1] ، وهى صرخة وجدت لها آذاناً صاغية وقلوبا واعية ، فتناقلتها الألسنة ووعتها الصدور وسارت بها الركبان فى الأودية والسهول :

ناشدتك الإحساس يا أقلام ... أتزلزل الدنيا ونحن نيام

قم يا يراع إلى بلادك نادها ... إن كان عندك للشعوب كلام

فلطالما أشعلت شعرك حولها ... ومن القوافى شعلة وضرام

ثم نمضى مع الزبيرى فى قصيدته الطويلة التى تكاد تبلغ ثمانين

---

(١) بديوان « صلاة فى الجحيم » .

بيتاً ، فنراه يحدثنا عما صارت إليه أمته من الخضوع والخنوع للحكام فيقول :

نخشى سيوف الظـــلم وهى كليلة
ونقـــدس الأصنام وهى حطام

وتذل أمتنـــا لفرد واحـــد
لا تُستقاد لمثله الأنعـــــــام

نُسدى له أموالنا ونفوسنا
ويرى بأنّا خائنون لئـام

نبنى له عرشاً يسود فيبتنى
سجنا نُهان بظله ونضـــــام

تعنو الرءوس له خشوعا ظُلَّعا (1)
وتنوء من أصفاده الأقدام

كم سبَّحته ألسُن فتجرعت
منه مذاق الموت وهو زؤام

كم من أبٍ واسى الإمام بروحه
ماتت جياعا بعده الأيتام

يمتص ثروة شعبه ويُميته
جوعا ليسمن آله الأعلام

(1) أى : مائلة .

وتتراءى أمام ناظريه أمجاد بلاده وما شيده أسلافه من حضارة وعمران منذ فجر الإسلام ، بل إنه ليتوغل فى التاريخ حتى يصل إلى الماضى السحيق أيام حمير ومعين ، ثم يتساءل فى مرارة وأسى :

ماذا دهى قحطان؟ فى لحظاتهم ... بؤس ، وفى كلماتهم آلام
جهلٌ وأمراض وظلم فادح ... ومخافة ومجاعة وإمام
والناس بين مكبّـل فى رجله ... قيد ، وفى فمه البليغ لجام
أو خائف لم يَدْرِ ما ينتابه ... منهم أسجن الدهر أم إعدام
والاجتماع جريمة أزلية ... والعلم إثم ، والكلام حرام
والمرء يهرب من أبيه وأمه ... وكأن وصلهما له إجرام
والجيش يحتل البلاد وما له ... فى غير أكواخ الضعيف مقام
يسطو وينهب ما يشاء كأنما ... هو للخليفة مِعولٌ هدام
والشعب فى ظل السيوف ممزق الـ ... أوصال مضطهد الجناب يُضام
وعليه إما أن يغادر أرضه ... هرباً ، وإلا فالحياة حمام
نثروا بأنحاء البلاد ودمروا ... عمرانها ، فكأنهم ألغام
أكلوا اللباب الأرض واختصوا بها ... وذوو الخصاصة واقفون صيام

وما نحسب أن كلاماً يمكن أن يقال فى وصف المجتمع اليمنى أيام استبداد الأئمة أبلغ من هذا الكلام الذى يضرب على وتر

حساس فى نفوس اليمنيين جميعاً ، فنراهم يحفظونه ويتناشدونه بينهم فى إعجاب به وإجلال لقـائله الذى استطاع أن يصوغ مشاعرهم شعراً خالداً ولحناً يتغنى به الزمان .

ويخلص الزبيرى من ذلك الوصف إلى الدعوة للكفاح والنضال فيقول :

يا قوم هبوا للكفاح وناضلوا	إن المنام عن الذمام حرام
تستسلمون إلى قساةٍ ما لهم	خُـلُـق ولا شرع ولا أحكام
ولقد صبرتم ثلث قرن لم يُـصن	أعراضكم صبر ولا استسلام
لن يبرح الطغيان ذئباً ضارياً	ما دام يعرف أنكم أغنام
فتكلموا كيما يصدق أنـكم	بشر ، ويشعر أنه ظلام
وتحركوا كى لا يظن بأنكم	موتى ويحسب أنكم أصنام

وتلك قصيدة لا تحتاج إلى ثناء أو تمجيد . فحسبها أنها صوت الملايين من أبناء اليمن ، وحسبها أن تجد مكانها فى كل قلب ، وألفاظها على كل لسان فى اليمن الشقيق .

لقد كان شعر الزبيرى فى تلك الفترة — كما يقول الأستاذ محسن العينى — « برقا ساطعا يخترق حجب الظلام ويهتك أستاره . كان دقات عنيفة يتردد صداها فى جنبات السجن الكبير . كان

نداءً مخلصاً نابعاً من قلبٍ ثائر وروح عالية وحس مرهف»[1].
ومن أجل ذلك وجد طريقه ميسوراً إلى قلب كل يمنى ، سواء من كان يعيش منهم داخل حدود وطنه أو مشرداً بعيداً عنه .

* * *

وفى عدن تأسست الجمعية اليمانية الكبرى برئاسة الزبيرى[2].
وبعد ما يقرب من عام ونصف سُمِح لليمنيين المقيمين هناك بإصدار جريدة خاصة بهم ، فصدرت صحيفة « صوت اليمن » فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ لتكون لسان حال الجمعية اليمانية . ولم يكد ينقضى عام أو أكثر قليلا حتى صدر « الميثاق الوطنى المقدس » الذى التقت على أساسه مختلف القيادات الفكرية والثورية .

والشيء لاالذى شك فيه أن « صوت اليمن » المنبعث من الجنوب قد استطاع أن يهز مضاجع الغافلين من أبناء الشمال وأن يوقظهم من سُباتهم . فقبل أن ينقضى عام ونصف عام على انطلاق هذا الصوت ، شبت الثورة اليمنية الأولى فى السابع من ربيع الثانى سنة ١٣٦٧ هـ (١٧ فبراير سنة ١٩٤٨) بقيادة عبد الله بن أحمد الوزير ، ودفع الإمام يحيى حياته ثمناً لما أذاق الشعب من ألوان

---

(١) مقدمة « صلاة فى الجحيم » .
(٢) ثم تولى رئاستها الأمير سيف الحق ابراهيم بعد أن انضم إلى الأحرار فى سنة ١٩٤٦ .

الخسف والهوان ، وبويع ابن الوزير بالإمامة وتشكل أول مجلس للشورى في اليمن برئاسة سيف الحق إبراهيم نجل الإمام يحيي (وكان قد هاجر إلى عدن فراراً من ظلم أبيه) وأفرج عن أكثر من ثلاثة آلاف معتقل كانت تمتلىء بهم السجون ، وفتحت اليمن أبوابها لتستقبل أبناءها الأحرار من كل مكان [1] . وكان أول العائدين تلك الفئة المناضلة التي عاشت الثورة في أخيلتها فكراً ، وعلى ألسنتها قولا ، وفي حياتها سلوكاً وعملا .

---

(١) الواقع أن الثورة فتحت قلبها وأرضها لكل أحرار العروبة واضعة بذلك شعار الأخوة والوحدة العربية موضع التنفيذ . فقد عين الفضيل الورتلاني (وهو جزائري) مستشاراً للدولة ، وعين الضابط العراقي جمال جميل قائداً عاماً للقوات المسلحة ومديراً للأمن العام ، وعين رشيد سنو (وهو لبناني) مديراً للصحافة والنشر ، وعين الدكتور مصطفى الشكعة (وهو مصري) مديراً للإذاعة .

العَوْدَة

عاد الزبيرى إلى صنعاء ليتولى وزارة المعارف فى أول حكومة ثورية باليمن . ولقد كان الطريق أمام الحكومة الجديدة محفوفاً بالمخاطر والصعاب . فالوضع الداخلى متدهور ، وجزء كبير من الوطن محتل ، والمثقفون الذين يمكن أن ينهضوا بتبعات الحكم والقيادة قليل أو أقل من القليل . ومن ثم فزع الثوار إلى الجامعة العربية يلتمسون منها العون والتأييد . واستجابت الجامعة لدعوة الحكومة الجديدة ، فاتجه إلى اليمن وفد برئاسة عبد الرحمن عزام أمينها العام .

وقد أبحر الوفد من السويس فى ٢٨ فبراير فبلغ جدة فى ٤ مارس . وواصل السفر بالطائرة إلى الرياض للاجتماع بالملك عبد العزيز آل سعود . وهناك استضافه الملك السعودى ، فرأت الحكومة اليمنية — كسباً للوقت — أن ترسل ممثلين لها إلى السعودية للقاء وفد الجامعة العربية على وجه السرعة . فانطلق عبدالله بن على الوزير ومحمد محمود الزبيرى والفضيل الورتلانى [1]

(١) عالم جزائرى وفد على اليمن فى شبابه مندوبا لإحدى الشركات التجارية لكى يؤسس فرعا لها هناك . وبعد أن جرب مع الإمام يحيى ومع ابنه الأمير أحمد جميع وسائل الإقناع والإغراء بإصلاح نظام الحكم ، آمن بالثورة وحرض عليها باعتبارها أقرب الطرق لإصلاح اليمن .

إلى عدن ، ومنها استقلوا الطائرة إلى جدة فبلغوها فى ٨ مارس ولكنهم لم يوفقوا فى مهمتهم ولم يصلوا فى مباحثاتهم إلى شيء ، فعادوا أدراجهم حانقين ساخطين ليجدوا الثورة قد وئدت ، ومطار صنعاء قد سقط فى يد القبائل الموالية للإمام وولى عهده [1] وسقط معه المئات من الشهداء الأبرار ، وامتلأت السجون بالأحرار. فمضى الثلاثة إلى عدن يحملون بين جنوبهم مأساة وطنهم ، وظلالا كئيبة عن الدول العربية التى كانوا يعلقون عليها أكبر الآمال .

---

(١) كان الأمير أحمد أميراً على مقاطعة لواء تعز فى عهد أبيه ، فلما قتل أبوه (الإمام يحيى) غادر تعز فى طريقه إلى صنعاء . وبلغه نبأ مبايعة علماء صنعاء وأعيانها لابن الوزير فعاد من باجل إلى الحديدة وقد عزم على مغادرة البلاد نهائياً إلا أنه تلقى من الملك عبد العزيز آل سعود تأكيداً بضرورة البقاء ووعداً بأن يضع كل ما يملك من مال وعتاد تحت تصرفه . وهنا اتخذ طريقه إلى حجة (مقر إمارته قبل أن يتولى إمارة تعز) فى الشمال الغربى من صنعاء . وهناك أعلن للقبائل التى كانت تتجمع أنه قد سمح لها بنهب صنعاء والاستيلاء عليها ، فزحفت القبائل نحو العاصمة وحاصرتها حتى سقطت فى أيديها يوم السبت ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ الموافق ١٣ مارس سنة ١٩٤٨ . وبعد ذلك بيومين بويع الأمير أحمد بالإمامة ، ثم أعدم ابن الوزير وكبار أتباعه وعلى رأسهم سيف الحق إبراهيم والقائد العراقى جمال جميل ، وأودع بقية الأحرار فى سجن حجة الرهيب .

الطريد

ولكن عدن لم تتلقهم هذه المرة كما تلقتهم من قبل ، فبعد انتكاس الثورة ثار الرأى العام ضد الأحرار ؛ وطردهم الإنجليز ومنعوهم من إصدار جريدتهم . ولم تكن نظم الحكم الرجعية فى البلاد العربية فى ذلك الوقت تسمح بأى مد ثورى يأتى من الخارج . ومن أجل ذلك رفضتهم كل الحكومات العربية ، فولى الزبيرى والوزير وجهيهما شطر شبه القارة الهندية حيث قضى الوزير بقية حياته فى الهند ، بينما رحل الزبيرى إلى الباكستان . وفى ذلك يقول :

« كنت مشرداً بعد نكبة عام ١٩٤٨ ومطارداً من كل بلد على ظهر الأرض . وكانت البلاد العربية كلها تحت سلطان العروش الرجعية ونفوذها وهيبتها ، تلك العروش التى هزها مصرع الإمام يحيى . وكانت كل حركات الشعوب تعانى نكسة عامة ، ولم نكن نعرف لنا ملاذاً يومئذ غير باكستان الدولة الإسلامية الفتية التى كانت محط كل الآمال » [١] .

---

(١) ثورة الشعر : ص ١٥٩ .

أما ثالث الثلاثة وهو الفضيل الورتلانى فقد قضى ثمانية أشهر متنقلا على البواخر فى البحر الأحمر دون أن يجد شاطئا يأويه . وأخيراً قبلته بيروت فاحتج الإمام وسحب الطلبة اليمنيين من هناك (وكان منهم فى ذلك الوقت محسن العينى) . ومكث الورتلانى فى لبنان حتى قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ ففتحت له مصر صدرها ليعيش فى رحابها ما يقرب من عامين عاد بعدهما إلى بيروت ، ومنها رحل إلى تركيا حيث قضى بقية حياته .

ولعل تلك الفترة من حياة الزبيرى كانت أقسى مراحل حياته على الإطلاق . فقد لفظته عدن وعاش مطارداً متخفياً فى الهند ، يُفرغ مأساته ومأساة أمته بأسرها فى شعر حزين تكاد تشم فيه رائحة الدموع . استمع إليه يقول عن وطنه : [1]

ماكنت أحسب أنى سوف أبكيه
وأن شعرى إلى الدنيا سينعيه

وأننى سوف أبقى بعد نكبته
حيًّا أمزّق روحى فى مراثيه

وأن من كنت أرجوهم لنجدته
يوم الكريهة كانوا من أعاديه

---

(١) من قصيدة « رثاء شعب » التى نشرت فى ديوانه « صلاة فى الجحيم »

ألقى بأبطاله فى شر مهلكة
لأنهم حققوا أغلى أمانيه

قد عاش دهرا طويلا فى دياجره
حتى انمحى كل نور فى مآقيه

فصار لا الليل يؤذيه بظلمته
ولا الصباح إذا ما لاح يهديه

فهو فى هذه الأبيات يصور مأساة قومه الذين أسلموا الثوار للإمام وأعوانه من الرجعيين ليفتكوا بهم[1] . وهو لا ينقم على القوم بقدر ما يرثى لهم وينقم على الجهل الذى عاشوا فيه حقبا طويلة حتى عموا عن سواء السبيل . ومن أجل هذا نراه يقول فى فدائية رائعة :

فإن سلمتُ فإنى قد وهبت له خلاصة العمر ماضيه وآتيه
وكنت أحرص لو أنى أموت له
وحدى فداءً ويبقى كل أهليه

---

(١) لعل أهم أسباب فشل ثورة ١٩٤٨ أن القيادة الثورية كانت معزولة عن القاعدة الشعبية التى كانت تغط فى نوم عميق وأفاقت فجأة على هدير الثورة فأدركها الفزع ، وبدلا من أن تتجاوب معها وتلتحم بها ، مضت تسلم الثوار للإمام على أنهم مارقون خارجون عن طاعته .

لكنه أجل يأتي لموعده ما كل مَنْ يتمناه ملاقيه
وليس لي بعده عمرٌ وإن بقيت أنفاس روحي تفدّيه وترثيه
فلست أسكن إلا في مقابره ولست أقتات إلا من مآسيه
وما أنا منه إلا زفرةٌ بقيت تهيم بين رفاتٍ من بواقيه

وهنا نحس أننا أمام شاعر اليمن بلا منازع . فهو يعيش مأساة شعبه بكل ما فيها من مرارة وضراوة ، ويسكبها في شعره نغماً عذباً ولحنا رائعا يبقى على مر السنين والأيام .

وكأنما كانت صورة النكبة ببشاعتها تستبدُّ به وتسيطر على كل جوارحه ، وكأنما كانت أشباحها تلح عليه وتطارده في كل مكان فنراه يقول :

أنكبةٌ ما أعاني أم رؤى حلم سهت فأبقته في روحي دواهيه
أعوامنا في النضال المرّ جاثية تبكي النضال وتبكي خطب أهليه

ويمضي في تصوير النكبة وكيف استجمعت عناصر البغي كل قواها وتكتلت لتقضي على ثورة الثوار . ثم يخاطب الشعب في مرارة وحزن عميقين :

يا شعبنا نصف قرن في عبادتهم لم يقبلوا منك قرباناً تؤديه
رضيتهم أنت أرباباً وعشت لهم تُنيلهم كل تقديس وتأليه
لم ترتفع من حضيض الرق مرتبة
ولم تذق راحة مما تقاسيه

ولا استطاعت دموعٌ منك طائلة

تطهير طاغية من سكرة التيه

ولا أصخت إلينا معشراً وقفوا

حياتهم لك فى نصح وتوجيه

نبنى لك الشرف العالى فتهدمه ونسحق الصنم الطاغى فتبنيه

نقضى على خصمك الأفعى فتبعثه حياً ، ونشعل مصباحا فتطفيه

قضيت عمرك ملدوغاً وهأنذا أرى بحضنك ثعباناً تربّيه

تشكو له ما تلاقى وهو منبعث ال

شكوى وأصل البلا فيما تلاقيه

أحلى أمانيه فى الدنيا دمو

عك تجريها ورأسك تحت النير تحنيه

وجرحك الفاغر الملسوع يحقنه سُمّاً ويعطيه طبّاً لا يداويه

فلا تُضع عمر الأجيال فى ضعة الشـ

ـكوى ، فيكفيك ماضيه ويكفيه

فما صراخك فى الأبواب يعطفه ولا سجودك فى الأعتاب يرضيه

لا عُنقك الراكع المذبوح يشبعه

بطشاً ، ولا دمك المسفوح يرويه

فامدد يديك إلى الأحرار متخذاً منهم ملاذك من رقّ تعانيه

ماتوا لأجلك ثم انبث فى دمهم جيل تؤججه الذكرى وتذكيه

يعيش في النكبة الكبرى ويجعلها
درساً إلى مقبل الأجيال يمليه

ويضيق الزبيرى بالحياة أو تضيق به الحياة فى الهند ، فيمضى إلى الباكستان حيث يعيش فيها ما يقرب من أربعة أعوام لم ينقطع فيها صوته عن الهدير من إذاعتها العربية مستثيراً قومه للكفاح والنضال ، واضعاً أمام الضمير العالمى مأساة أمته التى حملت راية الحضارة والعمران فى تاريخها السحيق ، بل وفى تاريخها الوسيط أيضاً يوم رفرفت عليها راية الإسلام ، ثم ما آلت إليه أحوالها من العزلة والتخلف باسم الدين والدين منها براء .

ولم يكن يمكن لشاعر اليمن أن ينفصل عن الحياة فى الدولة التى آوته وأتاحت له الأمن وحرية التفكير والتعبير . ومن أجل هذا نجد له قصائد فى استقلال الهند وباكستان ، وفى العيد الأول لقيام دولة باكستان ، وفى زعيمها ومؤسسها القائد العظيم محمد على جناح .

ولقد كان صوت الإسلام هو الصوت الغالب على تلك القصائد جميعها . فهو فى قصيدته التى ألقاها فى الذكرى الأولى لقيام باكستان[1] يتحدث عن الصراع بين الإسلام والوثنية فيقول :

فى العيد نـذكر الآلام ذاهبةً عنا فتُغضبنا الذكرى وترضينا

(١) ديوان « صلاة فى الجحيم »

لقد دفعنا لها الأرواح غالية ً — لكن كسبنا الغوالي من أمانينا
ما أكرم الشهداء الطهر إذْ وهبوا
لنا الحياة وذاقوا الموت راضينا
أيام كان الصراع المرُّ يطعم أفـــواه القبور ملايينا ملايينا
وكان روح ُكتاب الله يبعث جنـــد الله للموت تياهين زاهينا
أبى لهم دينُهم أن يتركوا بقراً — تمحو السموات أو تلغى النبيِّنا
وأن يَذِلُّوا لأصنامٍ وقد جعل الإسلام عزتهم فى دينهـــم دينا

وحين يستقبل عبد الوهاب عزام عند قدومه إلى الباكستان سفيراً لمصر لدى حكومتها نراه يخاطبه قائلا :

انظر إلى الإسلام ما باله — أجمعت الدنيا على حربه
قاطعـــه حتى حوارِيُّهُ — وأجفلوا عنه وعن ُقربه
علامَ هذا الخوف من نوره — وفيم هذا الضيقُ من رحبه
وكيف نخشاه على أمة — من روحه صِيغتْ ومن كسبه
سادت على الدنيا بسلطانه — وراعت الأعداء من عضبه[1]

وهو فى ذلك يدعو للعودة إلى دين الله والتمسك بتعاليمه ومبادئه التى ترتفع بنا عن السحر والشعوذة والطلاسم التى كانت سائدة فى الشرق ، وتسمو بنا عن التعلق الكاذب بحضارة الغرب وما فيها من تهتك وانحلال وفجور .

ولم تكن النزعة الإسلامية مجرد تيار ينساب فى مثل تلك

(١) ديوان « صلاة فى الجحيم » . والعضب هو السيف القاطع .

القصائد التي يمكن أن نسميها قصائد وطنية أو شعر مناسبات فحسب، وإنما تجلت في قصائد أخرى دينية محضة كتلك الملحمة التي تكاد تبلغ المائة بيت، والتي تحدث فيها عن مولد الرسول الكريم فاستهلها بقوله :

السماوات شيقات ظماء والفضا والنجوم والأضواء
والهدى والأملاك والوحـــي والتنزيل والمعجزات والأنبياء
والغيوث السمحاء والوابل المدرار والمعصرات والأنواء
كلها لوعة إلى المصطفى الهادي وشوق ونشوة وازدهاء[1]

ولم تقف القصيدة عند الميلاد وإنما تناولت حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، فتحدثت عن يتمه وعن اعتزاله للعبادة في حراء، ثم عن إشراق النبوة ونزول وحي السماء عليه.

وهكذا نرى أن إقامة الزبيري في باكستان الإسلامية أتاحت للجانب الديني في شعره أن يطفو على السطح وأن يكون السمة البارزة في تلك المرحلة من مراحل حياته الفنية على أقل تقدير.

* * *

ولقد مكث الزبيري في الباكستان حتى قامت الثورة المصرية في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فسمح له بدخول مصر التي كانت محرمة عليه وعلى أمثاله من الأحرار في عهد الملكية البائد. وفي أواخر سنة ١٩٥٢ يلتقي على أرض الكنانة بزملائه من أحرار اليمن،

(١) ديوان « صلاة في الجحيم »

وبمجموعات جديدة من الشباب اليمنى المثقف الثائر ، ويشكلون جميعاً « الاتحاد اليمنى » لينهض بتبعات النضال الوطنى . وفى أخريات عام ١٩٥٣ تفتتح الجمعية اليمنية الكبرى بالقاهرة فيحييها الزبيرى بقصيدة يتعرض فيها لقضية بلاده وما قدمه المخلصون من أبناء وطنه من تضحيات غاليات . يقول :

اليوم وافى بوادى النيل ماضينا ... نحس وقع خطاه فى مغانينا
هبّت به نسمات البعث وانطلقت ... تهزّ كل دفين هاجعٍ فينا
لما تجلت على الدنيا بشاشته ... تلفّتت أفق الدنيا تحيينا
يوم من الدهر لم تصنع أشعته ... شمس الضحى ، بل صنعناه بأيدينا
قد كونته ألوف من جماجمنا ... وألفته قرون من مآسينا
نسيج أضوائه البيضا دم عبقٌ ... سالت به مهج الطهر المضحّينا
فكل ثانية منه لو انتسبت ... كانت سلالة أسد من أوالينا (١)

وهنا تطالعنا صور المآسى والتضحيات التى بذلها الشعب قروناً طويلة ، وتبرز أمامنا حقيقة ناصعة وهى أن أيدى الثوار وجماجمهم ودماءهم هى التى تنسج للوطن خيوط الفجر الجديد .

* * *

وفى القاهرة أتيح لأحرار اليمن من حرية التفكير والتعبير ووسائل الإعلام ما لم يُتَح لهم من قبل ، ففتحت لهم إذاعة صوت العرب

---

(١) صحيفة « الفضول » — وهى يمنية كانت تصدر فى عدن — العدد ٥٥ ، الصادر فى ٣ أكتوبر ١٩٥٣ .

أبوابها ليتحدثوا منها الى الدنيا بأسرها . وفى الوقت نفسه سُمح لهم بإصدار صحيفة خاصة بهم ، فبعثت من جديد صحيفة « صوت اليمن » التى كانوا يصدرونها من قبل فى عدن ، وصدر العدد الأول منها فى منتصف أغسطس سنة ١٩٥٥. وكانت الأحاديث الأسبوعية التى يلقيها الزبيرى وأحمد نعمان فى إذاعة صوت العرب تنشر فى تلك الصحيفة تحت عنوان « صوت اليمن فى صوت العرب » .

وهكذا تضافر الصوتان ، صوت اليمن وصوت العرب ، ليحملا معاً إلى شعوب العالم بأسره الصورة الحقيقية لحياة الشعب العربى فى اليمن بكل ما فيها من مآسٍ وأهوال .

* * *

وحدث فى آخر مارس سنة ١٩٥٥ أن قامت الثورة اليمنية الثانية بقيادة المقدم أحمد يحيى الثلايا بعد سبع سنوات من قيام الثورة الأولى فى فبراير سنة ١٩٤٨ . ولم تستمر الثورة غير خمسة أيام [١] . وذهب ضحيتها الشهيد الثلايا وزملاؤه والأمير سيف

---

(١) كان الإمام أحمد قد أرغم على التنازل عن العرش لأخيه عبد الله فى ٣٠ مارس . ولكنه عندما علم أن ولده البدر يحشد له القبائل الموالية فى الشمال رجع عن تنازله وبدأ يقاوم الثوار حتى قضى عليهم . وساعده على ذلك انقسامهم على أنفسهم قبل أن يتحقق لهم النصر الحاسم .

الإسلام عبد الله — شقيق الإمام أحمد — لأنه انساق مع التيار الثوري ، فحُكم عليه بالإعدام هو وشقيقه الأمير العباس [1] .

ومع أن الثورة لم يكتب لها النجاح إلا أنها هزت المجتمع اليمني هزا عنيفا ، وأيقظت فيه روح الثورة الكامنة في أعماقه ، وكانت في الوقت نفسه تجربة غنية بالخبرات أفاد منها الثوار وتعرفوا بها على عوامل الفشل والنجاح في الثورات .

* * *

وعلى مدى عشر سنوات قضاها الزبيري في القاهرة متطلعاً إلى ثورة ناجحة تقتلع الفساد من جذوره ، كان صوت الثورة هو الصوت الذي يطغى على كل كتاباته وأشعاره . ويكفي أن نقرأ في ديوانه « ثورة الشعر » لنرى الثورة العاتية على الأئمة ومن دار في فلكهم من الحكام .

تمرد قلبي على الظالمين ودنياهم الفظة الغاشمه
وعشت مع الشعب في خطبه المرير وآلامه الحاطمه
أثير كوامن أعماقه وأوقظ عزته النائمه

---

(١) بعد تنازل الإمام أحمد لسيف الإسلام عبد الله ، شكل عبد الله وزارة جديدة برئاسة أخيه العباس ، فاعتبرهما الإمام أحمد شريكين في الخروج عليه .

وغزو دياجير أغواره فأشعلها بالرؤى الحالمه
وأطرد أشباح كابوسه الـرهيب وأهواله الجاثمه [1]

فهو فى هذه الأبيات يصرخ فى أذن الشعب لعله يستيقظ أو يفيق . وفى قصيدة أخرى [2] نراه ينذر الظالمين ويتوعدهم :

أيها التائهون عجباً لأن الشـعب فى محنة الظلام مقيد
أيها الآخذون بالأمس درسا قاسيا ، لا نريده يتجدد
أيها الراقصون فوق حطام الشـعب والشعب صابر يتجلد
أيها الضاحكون والشعب يبكى أيها الرافهون والشعب يجلد
أيها الكافرون بالحق إن الحق رغم الكفران يقوى ويشتد

* * *

لا يغرنكم سكون من المـا رد يبدى الخنوع وهو مصفد
يومه قادم فويل لمن وا جـه يوم الحساب غير مزوّد

وفى قصيدة ثالثة [3] نراه ينعى على الشعب استسلامه للذل والهوان حتى ليكاد يعلن الثورة عليه :

---

(١) من قصيدة « كفر وإيمان » .
(٢) قصيدة « الأمن الزائف » .
(٣) قصيدة « هل يخاف الشعب من نفسه » .

يقولون هذا الشعب عبدٌ تذله السيـــاط ويعطيه الهناءة علقمُ
فإن كنته ياشعب فافرح بعهدك الذى أنت فيه مستضام ومرغم
وطبْ بالكرى عيناً فإنك موثـَق وعش صامتاً واهناً فإنك ملجم
ولا تخش من زلزال الشعر أصوغه فإنك ـ قد قالوا ـ أصمُّ وأبكم
ولا تتحرك لو تحرك جندل ولا تتكلم لو تكلم أعجم
ولا تتخوف من أشعة أنجُـمٍ فليس لأعمى فى السماوات أنجم
ولا ترتقب فجراً لحولك ظلمة تغوص بها كل النجوم وتظلم
وكن آمناً من لسعة النحل إنه سيحميك ذئب أو يداويك أرقم
هراءٌ يقول الكافرون بشعبهم فسحقاً لما فاهوا به وتكلموا

ولقد كان الإمام يستغل الشعب ويستذله باسم الدين ، وكان على الزبيرى أن يفنِّـد تلك الأسطورة وأن ينفذ إلى قلوب الناس وعقولهم من هذا الباب :

ليس فى الدين أن نقيم على الضـــيم ونحنى جباهنا للدنيّه
ليس فى الدين أن نؤله طغيا نًا ونعنو للسلطة البربريه
ليس فى الدين أن نقدس جلا داً ونُيمناه من دمانا رويه
لعن الله كل ظلم وجور لعنة فى كتابه سرمديه
فليمت من يضفى على الظالم الطا غى رداء الجلال والقدسيه
الركوع الذليل فى غير وجه اللـــه رُجعى بنا إلى الوثنيه

وعبيد الأحجار أشرف من يجعل السيف ربه ونبيه[1]

وهكذا كانت تلك المرحلة مرحلة شعر الثورة أو ثورة الشعر . وكأنما كانت الثورة حلماً يداعب خيال الزبيري ويستهويه، فلم تكد تشب الثورة فى العراق فى يوليو سنة ١٩٥٨ حتى ارتفع صوت اليمن يناجيها ويناديها أن تمد إليه يدها لتنتشله مما هو فيه :

صيحةَ الشعب فى بلاد الرشيد أشعليها ناراً وثورى وزيدى
ازحفى كالطوفان يا ثورة الشعب إلينا ودمدمى كالرعود
طهِّرى جوَّنا من الموت والصمت وهزِّى لنا بقايا الحدود
إخوةٌ نحن فى القيود فهيا لكن إخوة بخلع القيود

ويستعرض الزبيرى فى قصيدته « من أحرار اليمن إلى أحرار العراق » ماذاقه الشعب فى كلا البلدين على أيدى الحكام من خسف ومذلة وهوان ، ويلح على مأساة شعبه وما بذل من تضحيات غاليات :

كم دفعنا من الدماء لغايات كغاياتكم وقصدٍ رشيد
خذلتنا ظروفنا وأعادينا وفزتم أنتم بنُجحٍ أكيد

(١) من قصيدة «خطبة الموت» وهى الخطبة التى ألقاها الإمام أحمد عندما عاد من إيطاليا التى كان قد ذهب إليها للاستشفاء فى سنة ١٩٥٩ ، وفيها هدد بقطع الرءوس والأيدى والأرجل ، وطالب الشعب أن يبارزه إن أراد .

وهو لاينسى أن يحذر ثوار العراق من أن يضعوا أيديهم فى أيدى حكام اليمن الذين يعيشون على النفاق والرياء وسفك الدماء.
ثم يحيي الثورة ويباركها قائلا :

ثورة الشعب فى العراق تباركت وحييت من ضمير الوجود
كل نبض فى شعبنا كان شعرا يتغنى بيومك المعبود
فجرتك السماء ريحاً من الموت على كل مستبد عنيد
عصفت بالأصنام آلهة الأمس ودكت من كل ركن وطيد
وأذلت من كبرياء جباه كان يعنى لشأوها بالسجود
كم إله مزيف تركته هيبة الشعب فى عداد العبيد
يا حياة هبت لنا من قبور يا سعيراً فارت لنا من جليد
يا أمانينا ونجوى هوانا يا أناشيدنا ليوم الخلود
كنت بالأمس ليلنا اليائس الباكى ورعب السكرى وذل القيود
كنت حلف العدو يرهبنا منه ويحظى فيه بركن شديد
كنت عضواً لم ندر كيف نداويه ونقضى فيه برأى سديد
إن عفونا سرى لنا الداء منه أو بترنا عشنا بجسم قعيد

* * *

فتصديت أنت يا ثورة الشعب بعزم ماض ورأى سديد
ونفضت التراب عن معدن الشعب وعن عرقه الأصيل العتيد
وغسلت العار الذى كان يؤذى من يراه على جباه الأسود

واقتلعت الطغيان من جذره العاتى ومن أسّه القوى الوطيد.

وهكذا نرى أن الثورة كانت تياراً قوياً يتدفق فى كل أشعار تلك الفترة من حياة شاعرنا العظيم ، وهى ثورة كان يذكيها فى نفسه ما يتراءى له من واقع مجتمعه الأليم . وما أصدقه حين قال :

روحى وإن حلقتُ عبر الكون فى وطنى سجين
بين الجراحات الوجيعة والضحايا الموجعين
بين العبيد وإن بعثتُ الرعب للمستعبدين
بين الرقيق وإن فضحت خرافة المتألهين
أحيا مع الشهداء فى سبأٍ هناك وفى معين
وأعيش بينهم كأنى صاحبٌ فيهم قرين
يبكيهمُ شعرى ويجرى إثرهم دمعى الهتون
وأروع قاتلهم وأجعل سجنه العرش المصون
وأذيقه من مُلكه ونعيمه طعم المنون [1]

وتلك نغمة ليست جديدة على الزبيرى وإنما هى امتداد طبيعى لشعر المرحلة السابقة فى عدن . فلم تكن حياة الزبيرى فى يوم من

---

(١) من قصيدة «مطالب وعتاب» التى نشرها فى «ثورة الشعر» .

الأيام غير خفقة من الخفقات التي تدق في صدر وطنه الجريح ، ولم يكن شعره إلا أناشيد الحرية التي يرتلها اليمنيون على اختلاف ديارهم ومنازلهم :

أصبو الى أمتي حباً وأبعثها بعثاً ، وأبني لها بالشعر بنيانا
أصوغ للعمي منه أعيناً نزعت عنهم، وأنسجه للصم آذانا[1]

* * *

ولم يكن النثر في تلك المرحلة يقل خطورة وخصوبة عن الشعر. فطالما حملت موجات الأثير صوت الزبيري إلى شتى بقاع الأرض متحدثاً سياسياً بارعاً ينبش في أنقاض مجتمعه ويستخرج منها صور الألم والعذاب التي تضنيه . وطالما نشرت له صحيفة « صوت اليمن » المقالات التي تجسد ما يعانيه الشعب العربي في اليمن من عبودية وهوان وتخلف وحرمان.

وإلى جانب الأحاديث الإذاعية والمقالات الصحفية ، كتب الزبيري عن « الإمامة وخطرها على وحدة اليمن» وألف «الخدعة الكبرى في السياسة العربية » و « مأساة واق الواق » وكلها روافد متعددة تصب في نهر واحد كبير هو قضية شعب اليمن بكل

(١) من قصيدة «إلى وطني» التي نشرت على غلاف « ثورة الشعر » .

ملابساتها ، سواء فى الداخل من ناحية أسطورة الإمامة وما جرّته على البلاد من ويلات ، أو فى الخارج من ناحية أمل الثوار فى مساندة الدول العربية وموقف تلك الدول من الثورة والثوار .

ففى بحثه عن « الإمامة » يزيح الستار عن بشاعة الحكم الإمامى الفاسد ، ويفضح أساليب الحكام فى عزل الشعب حتى أصبح «يعيش خلف ستار متوكلى متين سميك يبلغ سمكه عدة قرون » [1] ويهتف بأعلى صوته : « إننا نريد أن نحرر حياتنا من كل ضروب العبودية . العبودية السياسية وتتمثل فى الاستعمار الوافد علينا من الخارج ، والحكم الاستبدادى الذى يمسك بخناقنا من الداخل والعبودية الروحية وتتجلى فى الأوهام الغاشمة الزائفة التى ترزح تحت عبئها روح الشعب وتسحق تحت وطأتها آدمية الجماهير وتتعطل بسببها عجلة التاريخ ونواميس التطور ، وفيها دون ذلك ما ينذر بتمزيق الشعب وتحطيم وحدته . والعبودية الاجتماعية الكامنة فى بعض التقاليد الرجعية والفوارق التى تميز بين طبقات الشعب وفئاته تمييزاً لا يقوم على أى أساس من المنطق أو الحق » . [2]

وبعد تلك الصيحة العاتية التى يطلقها الزبيرى فى أول حديثه

(١) الخدعة الكبرى : ص ٥٩

(٢) الإمامة : ص ٤

«عن «الإمامة وخطرها على وحدة اليمن» نراه يتعرض لوحدة الشمال والجنوب اليمنيين، ويبين كيف مزقت الإمامة شمل الإخوة في الشمال والجنوب، وكيف نفثت في وجدان الشعب سموماً روحية جعلته يستسلم ويطيع طاعة عمياء دون مناقشة أو حساب. «فعندما تمطر السماء يقال له: هذه بركات الإمام، وعندما تمحل يقال له: هذه دعوة من الإمام ضد العصاة المتمردين. الزكاة لا تعطى إلا للإمام، وبعض الصلوات لا تؤدى إلا بوجود الإمام. يجيء الرخاء فيكون بفضل الإمام، ويحل الفقر والبؤس والموت فيحال البائسون المقتولون التعساء إلى رمان الإمام وعنبه ونعيمه في الجنة»[1].

وهكذا «انسحقت شخصية اليمنيين في ظل الإمامة، وحرمت عليهم قيادة بلادهم، وصار التفكير فيها جريمة دينية وسياسية في وقت واحد، وشُوِّه التاريخ اليمني فأصبحنا لا نقرأ فيه إلا أسماء القديسين الآلهة من الأئمة وأذنابهم وأشياعهم، أما شخصيات الشعب فما يكاد يرفع رأسه للعزة والكرامة بطل من أبطالها حتى يسرع به الأئمة الأطهار ويبعثوا به مشيعاً بلعناتهم إلى قبره، ثم لا يذكرونه في التاريخ إلا أنه الباغي، عدو الله، الفاسق الملحد

(١) الإمامة: ص ٨

«الكافر التأويل[1] ، إلى آخر هذه الألقاب »[2] .

ويناقش الزبيري المبادىء الأساسية التي يرتكز عليها الحكم الإمامي في اليمن وأولها وأشدها خطراً أن الحكم ليس مستمداً من الشعب وإنما هو مستمد من السماء . فالأئمة هم آل البيت ، والله سبحانه وتعالى هو الذي ولاهم أمر الناس . فهم ظل الله ونوابه وخلفاؤه في الأرض . وتحت ستار التشيع لآل البيت ، كان الإمام يدعم مركزه الروحي بين القبائل ، ويلقي في النفوس أن منزلته كمنزلة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ينظم علاقته بالناس ومركزه فيهم تشريع إلهي في هذه الآية الكريمة «ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم» . فكل ما ورد في طاعة الله ورسوله ينطبق على الإمام لأنه نائب الله وخليفته »[3].

ولم يكن للإمام بعد ذلك من رسالة ينهض بها غير «بث روح الزهد والانصراف عن عمارة الحياة والتنديد بكل نزعة إلى البناء والعمران ، ماعدا بناء القصور الإمامية والمساجد وقباب

---

(1) يحكم على المجتهد بكفر التأويل إذا خرج على مذهب الأئمة في المسائل الأصولية . وتلك تهمة كان الأئمة يستغلونها في مآرب سياسية ويرمون بها الشافعية وغيرهم

(2) الإمامة : ص 8 — 9

(3) الإمامة : ص 12

الأضرحة » [1] .

وإلى جانب نظرية الحكم الإلهى ، نادى الأئمة بفتح باب الاجتهاد لا ليحل مشاكل الحياة العصرية فى إطار الدين وإنما « ليدخل منه أول مذهب خامس ، وهو المذهب الهادوى الزيدى ، وليتسنى له أن يقحم على أصول الدين نظرية سياسية لا يعترف بها الأئمة الآخرون وهى أن الخلافة لا يجوز أن تكون إلا فى العلويين من أبناء فاطمة ، كما يأتى بنظرية سياسية دينية أخطر وهى وجوب الخروج على الظلمة[2] ، وذلك لكى يتأتى له أن يثور على الخلفاء ويؤسس دونهم دولة وخلافة للعلويين من آل البيت » [3] .

ولم تكن حرية الاجتهاد حرية حقيقية وإنما كانت مجرد نغمة مفتعلة لاستجداء العطف الدينى للأئمة . وبدلا من أن ينشر دعاتها حرية العقيدة والفكر الدينى بين القبائل ، مضوا « ينشرون عقيدة التقديس والتأليه لمنصب الإمام وكل ما يحيط بهذه العقيدة الأساسية

---

(١) الإمامة : ص ١١

(٢) هذا المبدأ نادى به الإمام زيد بن على حين خرج على هشام بن عبدالملك . ولكن هل طبقته أسرة حميد الدين حقاً ؟ وهل اتخذته وسيلة لإقرار الحق والعدل أم أنها رفعت هذا الشعار ليكون كلمة حق يراد بها الباطل ؟ لقد قال التاريخ كلمته وأصدر حكمه على هذه الأسرة التى لم تخلص لزيد بقدر ما أساءت إليه وإلى مبادئه وتعاليمه .

(٣) الإمامة : ص ١٤

من نظريات تابعة لها تخدم كلها عرش الأئمة وتصنع لهم من عنصر القبائل قاعدة شعبية متعصبة جاهلة تلغى كل قيمة لحرية الاجتهاد وتخمد أنفاس العلماء الأحرار» (١).

ويخرج المؤلف من هذه الدراسة بنتيجة لا تقبل الشك والجدال، وهى أن الإمامة التى ابتـُلى بها اليمن نحو ألف عام قد فرضت عليه التخلف، وجرّت عليه ويلات الفرقة والانقسام. فهى لم تكتف بأن تقصم ظهر الشعب إلى قسمين أحدهما زيدى والآخر شافعى، وإنما كانت «هناك تقسيمات وتجزئات أخرى متسلسلة مستحكمة آخذ بعضها بخناق بعض، ومنحدرات كلها من هذه العلة الواحدة المزمنة وهى الحق الإلهى فى حكم البشر» (٢).

* * *

وفى كتاب «الخدعة الكبرى فى السياسة العربية» يتناول الزبيرى موضوع انضمام اليمن للدول العربية المتحدة (مصر وسوريا) فى شكل اتحاد فيدرالى، ويبين موقف الأحرار من هذه الخطوة ومسئوليتهم تجاه شعبهم وتجاه الشعب العربى كله فيقول:

«اليمن تعيش وراء ستار حديدى منذ نصف قرن، فهى مجهولة للرأى العام العربى جهلا تاما، وفيها مأساة مروعة تستهلك حياتها

(١) الإمامة: ص ١٦
(٢) « : ص ١٩

وهي مأساة من نوع غريب على الوعي العربي ، بل وعلى العصر الحديث كله . فإذا تكلم أهلها عن هذه المأساة لم يجدوا صدى ولا تجاوباً كافيا في جماهير البلاد العربية لأن العرب لا يفهمون لغة هذه المأساة ولا معانيها ،فليس عندهم لمأساة الشعوب إلا مقياس واحد هو الاستعمار . وقد جعلهم هذا يعتنقون نظرية جانبية ساذجة وهي أن أي شعب لا يعاني نكبة الاستعمار فهو شعب لا يعاني أي نكبة ، وأي حاكم لا ترتفع الأصوات بإعلان تمالئه مع الاستعمار فهو حاكم طيب متحرر .

إن هذا الوعي الناقص الساذج في البلاد العربية قد وضع على عاتق أحرار اليمن رسالة فذة عسيرة الحمل والأداء وهي خلق نوع من الثقافة والوعي والحساسية . . .

ومشكلة الشعب اليمني أنه لا يوجد في عالمه شعب مدرب على الإحساس بمأساته والتفاعل مع فظائعها وآلامها . وهي تشبه مأساة أهل النار ، فرغم تصويرها الرائع في القرآن الكريم فإن البشر لا يتجاوبون معها لأن أعصابهم لم تتدرب على الإحساس بها عمليا . . .

إن مهمة الأحرار عسيرة أي عسر ، فلهذا نلجأ في تبيانها إلى الأساليب الشعرية وإلى الرموز والأمثال ، نتحايل بها على

العقل العربى الذى يفكر بعيداً عنا قرونا وقرونا »[1] .

ويستعرض الزبيرى الأسباب التى يتذرع بها الحكام لتبرير تخلف اليمن وقصورهم فى الإصلاح وتلكؤهم فى تنفيذ الاتحاد ، فيرد ادعاء الأئمة بأن اليمن دولة مفلسة ، وبأن الإصلاح والتنظيم يغريان الاستعمار باقتحام أبواب البلاد . ويتعرض لتهديدهم — كلما أحسوا بضغط شعبى أو عربى — بالانحياز إلى الاستعمار وأحلافه وأهمها فى ذلك الوقت حلف بغداد ، فيعلن على الملأ أن « مبدأ ضرورة المداراة للحكام خوفا من أن يبيعوا نفوسهم أو بلادهم للشيطان مبدأ لا يمكن إقراره أو قبوله إلا فى فترات استثنائية خطيرة كالفترة التى كانت تعيشها العروبة قبيل ثورة العراق . ولو ساد هذا المبدأ فى حياة الدول والشعوب لظهر الفساد فى البر والبحر ، وتسلط الطغاة الفاسدون على شعوبهم وأخمدوا أنفاسها ومنعوها من أن تمارس أى حق من حقوقها فى الحريات السياسية ، بل ولحرموا عليها المطالبة بأى حق من حقوق الإنسان ما دامت تستطيع أن تهدد ببيع نفسها إلى الشيطان »[2].

ويكشف للأمة العربية أن اليمن لا تُحكم إلا « بواسطة شبح لا يستند إلى قوة الجيش ولا إلى القبائل ولا إلى طبقة معينة من

---

(١) الخدعة الكبرى : ص١٢ — ١٤
(٢) » » : ص ٣٧

الشعب ولا إلى جهاز حكومى ولا إلى كفاءات خائنة ، وإنما يستند إلى شيء واحد فقط هو الخيط الباقى له من إمكانيات البقاء ، وهو أنه ضد الاستعمار ولو من الناحية الشكلية ، ومتحالف مع السياسة العربية ولو من الناحية الشكلية أيضاً . وهذا الاعتبار هو ضمانته الوحيدة للاستمرار فى عافية من الانفجار والزوال .

فحينما يقال فى البلاد العربية إن الضغط على المسئولين اليمنيين سيدفعهم إلى أحضان الاستعمار فإن هذا قول مجرد من الواقع تجرداً بعيداً . وهو قول مبنى على تطورات مفترضة افتراضاً لا يقوم على أساس فهم بسرٍّ الواقع المسحور الذى تعيش فيه الأشباح اليمنية الحاكمة . وهذا هو الذى يزعج الطبقة المستنيرة فى اليمن ، ويثير فيهم الأسى والحسرة ، ويجعل بين عقولهم والعقلية العربية المتفرجة من بعيد ستاراً حديدياً من العجز عن التفاهم والالتقاء » (١) .

ويختم رده على هذا الزعم الباطل بقوله إن « الشعب اليمنى لن يقبل المشاريع المبتورة ولا المجزأة ، ولن يأخذ حقوقه فى الاتحاد مع العروبة صدقةً من حكامه أو تفضلا ، فإنها مشيئة يجب أن تتحقق كاملة غير منقوصة » (١) .

---

(١) الخدعة الكبرى : ص ٣٩ — ٤٠

(٢) « « : ص ٤٣

وربما كان من أعجب العجائب أن يجد أئمة اليمن فى حالات المرض التى تعتريهم عذراً كافياً لتعطيل أى مشروع من مشاريع الإصلاح والتعمير . وتلك خرافة يسخر منها الزبيرى أشد السخرية حين يقول :

« كم سمعنا من مشاريع تعطلت ودفنت لأن عاهل اليمن مريض . وكم رأينا عجلة الحياة فى الشعب اليمنى كله تشل وتتوقف لأن زكاماً خفيفاً ألم بالبلاط الشريف . بل أى شهر يمر فى عمر هذه الدولة المتوكلية ولا تكون معظم أيامه ولياليه عاطلة باطلة متشنجة ملغية من حساب الدهر لأن المرض ألح إلحاحاً متصلا بالمقام المنيف »[1] .

وبعد أن يدحض كل الحجج البالية التى يتخذها الأئمة ذريعة وعذراً مقبولاً لدى الشعب عن كل ما يعانيه من تخلف وضعة وهوان ، نراه يضع يده على السر الحقيقى المشكلة وهو « رجعية الطبقة الحاكمة واستبدادها ورفضها لحكومة حديثة ، ثم رغبتها فى المناورة والتسويف والكر والفر ، والتظاهر بالإقدام ثم البراعة فى الإحجام »[2] . يقول :

---

(١) الخدعة الكبرى : ص ٤٣
(٢) « « : ص ٢٠

« إن لبـاب الحقيقة فى الموقف منه أن نـكبة اليمن فى مدى نصف قرن وشقاءها وحرمانها لم تـكن لعنة نازلة عليها من السماء ولا حظـًّا تعساً قذفها به الشيطان ، وليست حكاية إفلاس الدولة ولا زكامها ولا عطاسها ولا قلة رجالها . وليست كذلك جهلا من الحـكام ولا تعصباً دينياً ولا خوفاً على استقلال البلاد ، وإنمـا هى فى جوهرها مشيئة ثابتة فى نفوس الحـكام وإصرار راسخ متعمـد وخطة عنيدة مرسومة .

ونحن لم نعرف هذه المشيئة عن طريق التنويم المغناطيسى ولا عن طريق البخت أو علم الـكف ، وإنما تلقيناها كما نتلقى حقائق العلم الذى تلده التجارب والمعامل والدراسات . وإن الزمن الذى استغرق هـذه التجارب لا يقل عن نصف قرن . وإن الذى قام بهـذه التجارب وشهد نتائجها ليس شخصاً منغلقاً فى معمـله ولا شاعراً حالماً فى خياله وإنما هو الشعب كله ، وحقل تجاربه هى حياة اليمن كلها بما اكتنفها خلال هذه الفتره من أحداث وخطوب وتقلبات يعجز منها الحصر .

وهـذه المشيئة الثابتة تتشبث ببقاء الشعب جاهلا فقيراً ممزقاً منهوباً منـكوباً مستعبداً قطيعاً لا يرتفع عن مستوى السائمة .

وحدود هذه النـكبة فى إجمالها وفى طابعهـا الكلى أن الشعب

كله ، الفرد فيه والجماعة على السواء ، لا يملك حق الحياة ولا حق البقاء على وجه الأرض ، لأن الحاكم المطلق يستطيع أن يلغى حياة أى إنسان فى الشعب بلا محاكمة ولا إعلان سبب ، إما إلغاء كلياً بالموت ، أو إلغاء جزئياً بالسجن »[1] .

وبعد أن وضع الزبيرى يده على مفتاح مأساة بلاده ، نراه يستعرض أمامنا ألواناً من الألاعيب المتوكلية كتظاهر الأئمة بالموافقة على أى مشروع للإصلاح يُعرض عليهم ، ثم خداع الشعب فى الداخل ومحاولة تضليل الشعوب العربية الأخرى بشتى الوسائل . ويستشهد بعدد من المشاريع الضخمة البراقة التى ولدت لتموت فى مهدها مثل مشروع استخراج ملح الصليف[2] ، والبعثة العسكرية العراقية التى جاءت للنهوض بالجيش اليمنى فوضعت كل أسباب الفشل فى طريقها ، ومجلس الشورى ومجلس الوزراء اللذين أعلن الإمام أحمد تشكيلهما بعد توليه السلطة إثر مصرع أبيه ، «ولم يجتمع أى منهما بأعضائه إلا مرة واحدة كانت هى الأولى والأخيرة . ولم يصدر مرسوم ولا قرار فى عمر هذا العهد ، بل ولم يجلس وزير واحد على مكتبه ساعة من نهار »[3] ، والشركة الألمانية التى تعاقدت على استخراج المعادن من اليمن ، ومن بعدها الشركة

---

(١) الخدعة الكبرى : ص ٥٢ — ٥٣

(٢) الصليف منطقة فى شمال الحديدة .

(٣) الخدعة الكبرى : ص ٧٩

الأمريكية التي باءت — مثل سابقتها — بالفشل الذريع ، وانهار صمودها في وجه عوامل الموت « التي كانت تنبعث لهـا من البيئة السياسية اليمنية التي يخرج منها كل شيء ميتاً حتى ولو كان إسرافيل نافخ الصور وباعث الموتى . وحزمت أمتعتها كأختها الألمـانية ، وتنازلت عن عرش بلقيس الذى يقوم على بحيرات من الذهب الأسود » [1] .

وبعد أن استوفى المؤلف جوانب تلك الصورة القاتمـة التي عاشتها بلاده في كنف الأئمة ، مضى يحاول في الصفحات الأخيرة من كتابه أن يتلمس لها منفذاً للضوء والإصلاح . ولم يكن عسيراً عليه أن يتبين أن المفتاح السحرى للمشكلة كلها يكمن في سيادة الشعب ، فإن « مشيئة التأله على الشعب تتشبث ببقاء الشعب قطيعاً ذليلا شقياً جاهلا ، وكأن أهم شرط للاحتفاظ بهذا الوضع البشع هو أن لا تقوم للشعب حكومة تمثله وتعبر عن إرادته ، ولا نظام يضمن له حظه الآدمى من الاستقرار والأمن . . . . من هـذه المشيئة الرهيبة الآثمة تنبثق مأساة اليمن في تاريخها الطويل . إلغاء مشيئة الشعب وآدميـة الشعب لتبقى وتسود مشيئة الإله المتوكلى وآله وذريته إلى يوم الدين » [2] .

---

(١) الخدعه الكبرى : ص ٨١
(٢) » » : ص ٨٥ — ٨٦

ومن أجل هذا نراه يطالب الشعب اليمني بأن يعمل على اقتلاع العلة من جذورها وأن « يعتمد على نضاله الداخلي وعلى جماهيره وإمكانياته التحررية وقوته الذاتية التي هي كفيلة — لو انطلقت — أن تحقق له كل ما يريد » . ويقول : « ومن جهة أخرى لا بد أن نحمي حركة اليمن التحررية فنضطلع بتوجيه الرأي العربي العام توجيهاً صحيحاً ، ونحاول أن نجعله ينسجم مع روح الحركة الشعبية في اليمن فلا يقاومها ولا يقف إلى جانب أعدائها . . . إن الشعب العربي في اليمن يكافح ويستميت ليتخلص من الأغلال والأهوال التي شلت حياته وشوهت آدميته ومسخت عروبته ، وهو يكدح في الصراع معها ليتحرر منها ويهب مسرعاً من أجل اللحاق بموكب النضال العربي الزاحف إلى أهدافه التحررية المقدسة .

ولسوف تعتبر نكبة عربية قاسية لو رأينا أجهزة النضال العربي وهي تعزز الأغلال التي يعيش فيها شعب اليمن بعيداً معزولا عن العروبة ، وتقف إلى جانب الجلاد وتمده بمزيد من طاقات البطش والتنكيل ، ثم تضع على رأسه أكاليل الغار كلما شنق شهيداً أو فتح قبراً أو صنع قيداً » (١) .

وهكذا نرى أن الزبيري قد نصب نفسه مدافعاً ومناضلا عن قضية بلاده ، يرفع صوت أمته إلى أسماع الدنيا بأسرها شعراً

---

(١) الخدعة الكبرى : ص ٩٥ - ٩٦

حيناً ونثراً حيناً آخر، بالمنطق حيناً وبالعاطفة حيناً آخر. لا يهدأ ولا يستكين ولا يجد راحته وعزاءه إلا فى الغوص إلى أعماق المأساة وأغوارها البعيدة، يستكشف العوامل النابعة من داخلها ممثلة فى الحكم الإمامى الفاسد، والعوامل القادمة من خارجها ممثلة فى مؤامرات الاستعمار لتمزيق وحدة الشعب اليمنى وتقسيمه إلى شمال تحكمه أسرة حميد الدين وجنوب يحكمه الإنجليز. وإذا كان فى بحثه عن «الإمامة»، وفى كتابه عن «الخدعة الكبرى» قد ركز بصره على الداخل، فهو قد حوّل بصره إلى الخارج فى مناسبات كثيرة، ونشر له الاتحاد اليمنى فى القاهرة فى أواخر سنة ١٩٥٧ بحثاً موجزاً عن «مؤامرات الاستعمار ضد اليمن» كشف فيه أبعاد المخطط الاستعمارى لفصل الجنوب عن الشمال، وألحّ فيه على أن «وحدة اليمن أمر طبيعى، وأن هذه الوحدة تقوم على أسس من الواقع والتاريخ والمصلحة الواحدة للشعب فى كل بقاعه»[1].

---

(١) مؤامرات الاستعمار: ص ١٥

فى أجواء واق الواق

وفى أواخر سنة ١٩٦٠ يجد الزبيرى نفسه فريسة لتجربة ألم لعلها أشبه فى عمقها وضراوتها بتلك التجربة المريرة التى جعلت أبا العلاء يهرب من الحياة ويتخذ من « رسالة الغفران » سلماً يعرج به إلى السماء ، وجعلت دانتى يلتمس له مأوى فى السماء حين طرد من وطنه وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فاتخذ من « الكوميديا الإلهية » متنفساً لآماله وطموحه ، وراح يعاقب الناس ويثيبهم ويتنقل بين الجنة والجحيم ، تقوده حبيبته بياتريسا فى الجنة ، ويقوده الشاعر الرومانى ڤرچيل فى الجحيم .

فى موقف من مواقف الضيق والشدة ألـّف أبو العلاء رسالته وفى موقف شبيه ألف دانتى كوميدياه ، وفى غمرة من غمرات الأسى ألف الزبيرى كوميديا جديدة بدأها من الأزهر الشريف الذى ذهب إليه فى ليلة القدر من سنة ١٣٧٩ هـ « هارباً من كآبة نفسه وأحزان بلاده، يلتمس روحانية سماوية فى هذه الليلة المباركة تغسل الظلام الذى حلّ بقلبه »[١] .

وقد أطلق الزبيرى على تلك الكوميديا اسم « مأساة واق

---

(١) مأساة واق الواق: ص ٢

الواق ، رمزاً إلى مأساة بلاده . وفى ذلك يقول :

« إن أول كلمة سمعتها ووعيتها فى حياتى على لسان أمى وجدتى هى هذه الكلمة السحرية . وحينما كنت أحبو على الأرض ويلوث التراب يدى وملابسى كانتا تقولان لى : هذا تراب طاهر لأنه من أرض واق الواق ، وأننى أنا خُلقت منه وخلقت أمى وجدتى . فأدخلتا فى روعى دون قصد منهما أن تلك الأرض التى كنت أحبو عليها هى بالنسبة لى الأم الأولى والكبرى . . . . وأنا أشعر أن هذا البلد — كما لقنتنى أمى على الأقل — هو التربة الطاهرة الحبيبة التى جُبل منها جسدى وصيغ من طينتها قلبى وعقلى »[1] .

ومن مسجد مولانا الإمام الحسين رضى الله عنه ، انطلقت روح العِزِّى محمود[2] إلى آفاق الجنة والسعير . وكما تنقل دانتى فى رحلته الرهيبة بين الجحيم والمطهر والجنة، فكذلك فعل العزى محمود فى جولاته تلك التى قام بها ليضع قضية بلاده على بساط البحث مع كبار شهدائها فى محاولة لجمع شمل الشعب بجميع طوائفه وفئاته على كلمة سواء .

وعلى مشارف السماء يلقاه ملك من الملائكة يتعلق به العزى

(١) مأساة واق الواق : ص ٥ — ٦

(٢) العزى كلمة تطلق فى اليمن على كل من اسمه محمد . فالعزى محمود هو محمد محمود الزبيرى .

محمود ويمرق معه فى فضاء الله حتى يبلغ سماء وطنه فتعترضه «غيوم متلبدة محمرة كأنها اللهب ، نابضة بالحركة كأنها دماء قلوب دافئة ، نبيلة كأنها أرواح قديسين »[1] وفوقها سفينة تشبه عش الطائر من بعيد ، فيها أضواء تتلألأ وحولها أشباح تغدو وتروح . واقترب الملك من هذا العش السحرى الضخم وألقى العزى محمودعلى السفينة فتبينت حوريتها الفاتنة لميس[2] أنه حفيد من سلالتها ، وكاشفته بأن الغيوم المتلبدة الحمراء هى «قطرات من دماء الشهداء أحفادى باركتها روح السماء ورفعتها إلى الأفق فأصبحت بحراً لجياً مسحوراً فى الفضاء كما تراها . وقد سألتُ الله أن يخرجنى من الجنة لأكون ربّانة هذه الدماء ، أحرس طهارتها وأرعاها حتى لا تسقط قطرة منها إلى الأرض فتطؤها وتلوثها أقدام المستعبدين فتحزن لذلك أرواح الشهداء الأحرار . وسأظل على ذلك حتى تتطهر طينة بلادى ويتحرر العبيد من أحفادى . وقد أقسمت على الله ما دام أحفادى عبيدا أن يُبقى هذه اللُّجة الدموية فى سماء وطنهم تمنع عنهم الغيوث السخية السمحاء التى كنت أعرفها فى عهد أبى وأجدادى ، والتى كانت بها أرضنا جنة من جنات الله» [3] .

وهنا يسألها العزى محمود أن تيسر له الدخول إلى وطنه الذى

---

(١) مأساة واق الواق: ص ٢٩

(٢) ابنة أسعد الكامل .

(٣) مأساة واق الواق: ص ٣٢ — ٣٣

حرم منه الشطر الأكبر من حياته ، فتصحبه إلى الشهداء لتستأذنهم في ذلك باعتبارهم أصحاب الحق الأول في مصير المعركة .

وفي منطقة الأعراف يستقبله وفد من شهداء الجنة يتألف من عبدالوهاب نعمان وزيد الموشكي ومحمد صالح المسمري والضابط العراقي جمال جميل الذي لا يسميه المؤلف وإنما يكتفي بذكر الحرفين الأولين من اسمه (ج . ج) . ويرى العزي محمود في منطقة الأعراف هذه أولئك « الذين يُطلق عليهم في عرف النضال القومي والوطني بأنهم كانوا يمسكون العصا من الوسط فلا يشتركون في النضال ولا يساهمون في الخيانة ، ولا يعتبرون في زمرة الأحرار المؤمنين ولا فريق الطغيان ، وقفوا هنا لا يستحقون جنة ولا نارا »[1] .

وقبل أن يحصل له الشهداء على تصريح بدخول الجنة ، يُستدعى العزي محمود إلى جهنم ، ويصحبه رائد الجحيم في جولة يشهد فيها أعداء الشعب وهم يقاسون شتى ألوان العذاب في السعير .

وكانت أول أمنية للعزي محمود هي أن يرى الإمام يحيى وابنه الإمام أحمد (باعتبارهما قمة فساد الحكم الرجعي في اليمن) وهما

---

(١) مأساة واق الواق : ص ٥١

يلقيان جزاء ماقدمت أيديهما فى الدنيا من إثم وفساد فى الأرض.
وهو لايصرح باسم أيّ منهما وإنما يرمز إلى الأول بعبارة «عماد الطغيان» ويسمى الثانى «الوشاح[1] ياجنّاه». يؤكد ذلك قوله عن العماد:

«كان يوجد فى دنيانا طاغيـة تخلص منه الشعب منذ اثنى عشر عاما»[2].

وقوله :

«إنه المسئول الكبير عما يحل بشعبنا اليوم، فقد استعبدنا ثم أصر على أن يتركنا عبيداً بالوراثة، وأن يترك لنا أبناءه آلهة بالوراثة أيضا. وهو مع ذلك يدعى أنه سيد المسلمين»[3].

فإذا عرفنا أن القصة ألفت سنة ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م) وأن الإمام يحيى لقى مصرعه سنة ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) أدركنا بما لا يدع مجالا للشك أن المقصود بالعماد هو هذا الإمام.

أما بالنسبة للوشاح يا جناه فإننا نجد العزى محمود يقول على لسان الشهيد حسين بن ناصر الأحمر :

«إن هـذا الوشاح يا جناه أطلق على نفسه أو أطلق عليه

---

(١) الوشاح لقب أحد حراس الإمام، وكان يكلف بقطع رءوس الأحرار. وقد انتهت حياته بأن قتل بالسيف الذى كان يقتل به الأحرار.

(٢) مأساة واق الواق : ص٨٦

(٣) مأساة واق الواق : ص ٨٧

حوارييه وأذنابه اسما يدل عليه ويكشف عن شخصيته وأسلوبه فى الحكم وهو اسم يا جِنَّـاه . إنه مشتق من الجن أو من الجنـون . وهم يفتخرون له ويفتخر لنفسه بأن به لوثة من هـذا المعنى . إن مَثله الأعلى هو التهور والمبالغة فى البطش والخروج عما تواضع الناس عليه وألفوه من الاعتدال والاتزان . ولقد ساد بلادنا من هذا المزاج لوثة عامة أفسـدت حياتنا وقلبت أوضاعنا . ولقـد ضج منه أهله وخافوه واشتركوا فى ثورة سنة ١٩٥٥ وانتصر عليهم وقتل أخويه مع مَن قتلهم من أحرار البلاد »[١] .

ولا يكاد يجرى ذكر الوشـاح على لسان نيرون حتى نراه يصب اللعنة على الرومان لأنهم يعالجونه ويبعثونه حيا إلى شعب من البشر يسومهم سوء العذاب فى النصف الثانى من القرن العشرين.

والذى ذهب إلى روما للعلاج وقتل أخويه فى سنة ١٩٥٥ هو الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين .

ولا يخفى أن العزى محمود لم يصرح باسم هذين الإمامين خوفاً من نفوذهما الذى كان لا يزال يتحـكم فى الشعب . فهو يقول عن العماد — مثلا — : « إننى لو ذكرت اسمه الكامل لامتنع الصحافيون عن ذكر كلمة واحدة عن كتابى ، وامتنع الناشرون والموزعون وأصحاب المطابع عن طبعه وتوزيعه »[٢] .

(١) مأساة واق الواق : ص٢٥٩

(٢) « « « : ص ١٠٣ — ١٠٤

وهكذا نرى أن شبح الحكم الإرهابى البشع الذى كان يطارد العزى محمود فى الدنيا لم ينفك سحره عنه حتى فى ملك الله فى الآخرة .

وفى الجحيم يشهد صاحبنا صوراً من العذاب تذكرنا بتلك التى شهدها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء . فالخونة من المشايخ « على رءوسهم عمائم من اللهب ، وفى أوساطهم أحزمة من الحيات رءوسها تشبه الخناجر [1] فهى تطعنهم وتنهشهم فيسقطون على الأرض . ثم تندمل جراحهم فوراً فينهضون على أقدامهم من جديد » [2] . والجواسيس الذين كانوا يرتزقون بإرسال الشفر البرقية إلى الإمام فيوقعون بالأحرار والأبرياء ، رآهم مسمَّرين فى حيطان كهف مظلم موحش وقد ارتدت أكاذيبهم ووسائلهم نيرانا مسمومة أخذت شكل رصاصات كانت تدق فى صدورهم كأنها إشارات لاسلكية آتية من بعيد فتمزق أحشاءهم . والحكام والقضاة الذين كانوا يأكلون أموال اليتامى ظلماً رآهم فى العذاب « يأكلون النار ، يلتهمونها لهباً وجمراً من أفواههم ، فتخرج على الفور فحماً وصديداً يجرف أمعاءهم ويقطعها تقطيعاً » [3] . أما القضاة الذين كانوا يعاونون الطاغية فى جلد الشعب وإذلاله ونهبه وتجويعه فقد رأى « بطونهم منتفخة بشكل فظيع كأنها القباب

---

(١) إشارة إلى زى مشايخ اليمن وهو العمامة والحزام الذى يعلق به خنجر .
(٢) مأساة واق الواق : ص ٨٨
(٣) » » : ص ٩٠

ورأى مقارع النار تضرب هذه البطون المنتفخة (من أكل السحت الحرام) فيتطاير الشرر منها ويخرج صوت بشع يشبه أصوات الطبول التي تضرب في مراكب الحكام الكبار بواق الواق»[1].

ولم تخل النار من فقهاء الزيدية والشافعية الذين كانوا يبثون الفرقة بين الشعب ، فقد اتخذت كتبهم وقوداً لنار أحرقوا بها ، ورأى العزى محمود — ويا هول ما رأى — «كل رجلين قد امتزجا وأصبحا كتلة من اللحم المشوى. وصار عذابهما أن تقطع أعضاؤهما فتركب تركيباً مزجياً حتى يصبح الرجلان وكأنهما رجل واحد له رأسان ولسانان وأربعة أرجل وأربعة أيدى» [2] .

وفي قاع الجحيم استقر الأئمة الظالمون الذين كانوا يحطمون كل رأس كريم من رءوس الشعب ، ولا يعملون للشعب غير قباب المساجد والأضرحة ، تضخمت جماجمهم بشكل مرعب حتى أصبحت كالقباب وهم يئنون أنيناً موجعاً ويتذاكرون ماضيهم وما اقترفوا في حق الشعب من منكرات وآثام .

ورأى العزى محمود فيما رأى مطارق جهنمية هائلة ترتفع وتهوى ، وحيات تنقض من الأفق هابطة على الوشاح السفاح

---

(١) مأساة واق الواق : ص ١٠٥ - ١٠٦
(٢) « « : ص ١٠٨

وقد استحال إلى كتلة من اللحم المحترق المسموم وأصبح أنينه لا يخرج إلا مبعثرا من شقوقه المتصدعة ، والزبانية من حوله يهدرون بأهازيجهم فى غمرة حماس مثير .

وفى خاتمة المطاف رأى عماد الطغيان (الإمام يحيى) فى مكان قصى بقاع الجحيم ، فى سرداب سحيق رهيب يموج بجحيم يغلى ، يغوص فيه الإمام ثم يطفو فينتشله أحد الزبانية ويضعه فى فوهة آلة ضخمة على شكل وحش تلتهمه ثم تتقيأه قطعة على شكل الريال النمسوى [1] الذى كان يعبده العماد من دون الله .

* * *

ويغادر العزى محمود منطقة الجحيم إلى منطقة الأعراف ليجد الشهداء وقد حصلوا له على رخصة بزيارة الجنة ، فينطلق معهم إلى أجواء الفراديس العطرة ، ويزور أول ما يزور فردوس الشهيد محمد جغمان الذى قتله الإمام يحيى فى سنة ١٩١٩ لأنه وقف فى ساحة قبة البكيرية فى صنعاء يحذر الناس من عاقبة الحكم الفاسد ، ويسأل الله للأحرار نصرا مؤزرا على المفسدين والرجعيين ، حتى قال فى ختام خطبته : « اللهم انصر عبادك الأحرار ، وانتقم بسيفك من جرثومة الفساد الطاغية آل حميد الدين ، واستأصل شأفة هذه الفئة الباغية على الإسلام والمسلمين . آمين . اللهم آمين » [2] .

---

(١) العملة التى كانت مستعملة على أيامه

(٢) اليمن ثورة وسلام : ص ١٠ — ١١

وفى قصر هذا الشهيد يدور نقاش طويل يوضح الشهيد جغمان فى ثنـاياه أن جوهر النـكبة التى تعيشها بلاده هو أن العماد قد سلب الشعب كله حق الحياة يوم نفذ فيه القتل بدون محاكمة ، فإن الشعب الذى تنازل للطاغية فى تلك الليلة عن قدسية الحياة، تنازل له عن كل الحقوق التى هى دون الحياة . تنازل له عن أمواله وأعراضه وحريته وكرامته وإرادته ، وجعلها ملـكاً لشخص واحد يتصرف بها على هواه » (١) . « إن من أهم صفات الألوهية هى امتلاك الحياة والموت . والشعب الذى يعطى الحاكم حق الحياة والموت يحوّل الحاكم إلى إله دون أن يشعر » (٢) .

وبين أيديهم جميعاً وضع الشهيد جغمان نموذجا رائعا لمقدرة الصمود والتصدى للحكام الظالمين، وكان هذا النموذج الفذ هو قصة أم آل أبى الدنيا ، أولئك الرجال الثلاثة الذين أعدمهم الطاغية العماد وثأرت لهم والدتهم بوفائها ودموعها وارتفاع صوت بكائها حتى أرهقت أعصاب العماد وأخزت وجهه فى المجتمع وأحرجت مركزه وأعجزته عن الدفاع عن موقفه . وآخر وقفة من وقفاتها الباسلة أنها اعترضت موكبه الضخم فى عساكره وحراسه وحاشيته والسائرين فى ركابه فصاحت بأعلى صوتها : أريد أن أراه . أريد أن أراه . اسمحوا لى بمقابلته .

---

(١) مأساة واق الواق : ص ١٦٣
(٢) « « : ص ١٦٢

فلما سمع العماد صوتها وعرف شخصيتها داخله شيء من الأمل والفرح ، وظن أنها قد تعبت من الثورة والثأر ، وأنها جاءت تقبض ثمن أبنائها وتبيع منه دماءهم ، فأمر الحراس أن يخلوا بينها وبينه وأن يسمحوا لها بمقابلته . وتوقف لها بعربته وهو يحدث نفسه بالخلاص من إزعاجها، فاقتربت منه اقتراباً شديداً وأزاحت برقعها عن وجهها وأخذت تتأمل صورته وأطالت التأمل وهى صامتة والموكب كله واقف واجم حتى حار الحراس وجزعوا ، ثم صاحت بأعلى صوتها :

إن بصرى قد ضعف وأنا امرأة محجبة لا تعرف الرجال ، وقد جئت بنفسى إلى قاتل أولادى لأعرف صورته جيداً وآخذ بخناقه يوم الحشر وأحاكمه أمام الله .

قالت ذلك ومرقت من بين صفوف الحراس وبنادقهم وخناجرهم، وذهل الحاكم قاتل أولادها،ثم ناداها بعد أن خرجت من بين الصفوف قائلا :

ارجعى ، ارجعى ، سأعطيك ما تريدين .

قالت : ماذا أريد ؟ أريد أولادى . رُد إلىّ أرواحهم . أما المال فإنما يُشترى به العبيد . لقد اشتريت هؤلاء الرجال الذين من حولك ، لكنى امرأة من همدان لن أبيع منك دمى »[1] .

(١) مأساة واق الواق : ص ١٦٣ — ١٦٤

ولقد كانت صورة تلك البطولة الفذة موضع إعجاب جميع شهداء الجنة حتى لنراهم يتعلقون بأم الشهداء ويفكر معظمهم فى الزواج منها . ولكنها تقسم ألا تعود إلى زوجها القديم ولا تقترن بزوج غيره حتى ينهار عرش قاتل أولادها وعرش خليفته من بعده ، وحتى تطلع عليهم جميعاً يلقون جزاءهم فى سواء السعير .

وتنعقد محكمة الحب فى الجنة برئاسة ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر ، وعضوية رابعة العدوية وليلى العامرية وغزالة الخارجية(١) للنظر فى قضية زواج أم آل أبى الدنيا ، فتختار الأم الشهيد على ناصر القردعى زوجاً لها فى الجنة على شرط ألا تقترن به إلا بعد أن ينتهى عهد الفساد والطغيان فى بلادها ، ويذهب أقطاب العرش الرجعى المتعفن جميعاً إلى الجحيم .

وفى الجنة أيضاً يلتقى العزى محمود وصحبه بالإمام الهادى يحيى ابن الحسين وجماعة من أبطال خولان فى عصره ، ويناقشونه فى الإمامة التى خوله الشعب إياها قبل ألف سنة ليقوم الحكم على الحق والعدل ، وليجمع كلمة الأمة على الأخوة والمساواة ويطبق شريعة الله ومبدأ الخروج على الظالمين والمبايعة بالإمامة لمن تجتمع فيه شروطها ، وكيف انحرفت هذه الإمامة عن غاياتها وأهدافها النبيلة وحولها الأئمة إلى عرش يتوارث وحكم يفرض على الشعب بحد السيف .

---

(١) زوجة شبيب الخارجى الثائر .

وينعقد فى الجنة مؤتمر لمحاكمة الطغيان وتدارس مشاكل البلاد ووضع الحلول اللازمة لها . ويشترك فى المؤتمر بعض أعلام البلاد من العلماء الأحرار أمثال محمد بن إسماعيل الأمير ومحمد ابن إبراهيم الوزير ومحمد بن على الشوكانى ، وشهداء ثورتى ١٩٤٨، ١٩٥٥ وغيرهم من الشهداء والصالحين . وتنعقد « محكمة الله » برئاسة الإمام على رضى الله عنه ، وينهض زيد بن على مدعياً عاما فيهاجم الوشاح ياجناه الذى سلب الشعب حق الحياة وأساء إلى آل البيت بانتمائه إليهم ، ويستنكر أن يتحول آل البيت إلى أسر كسروية أو قيصرية تتوارث ملكية الشعوب . ويوجه إلى الوشاح تهمة الكيد ضد مقدسات آل البيت بانتسابه وأسرته إلى زيد بن على وهو الذى دعا إلى الخروج على الظالمين ، وتهمة حرمان الشعب من حق الحياة ، « والشعب الذى انتزع منه حق الحياة لايستطيع أن يحتفظ لنفسه بشىء وراء هذا الحق المنزوع . فالشرف والدين والكرامة والذمة والحرية والمروءة والأرض والمسكن والملبس ولقمة العيش كلها أشياء أقل من الحياة . فالشعب لايملك شيئاً منها إلا ما رضى له الطاغية أن يملك . ودعك من التعليم والعلاج وضروب الإصلاح ومطالب الحياة الكثيرة التى تكافح من أجلها شعوب الأرض ، فتلك تفاهات تافهة إلى جانب حق الحياة المنزوع »(١) .

---

(١) مأساة واق الواق : ص ٢٠٣

ثم ينهض الشهيد حسين بن ناصر الأحمر ، فيتحدث عن الإمامة فى نشأتها وكيف انحرف بها الأئمة المتأخرون عن المحجة البيضاء متخذين من اسم الإمام علىّ وقدسيته أداة للعبث بالشعب وسلاحا للبطش به وتمزيقه واستعباده ، حتى بلغت شرور الطغيان ذروتها فى عهد العماد وابنه الوشاح ياجناه الذى كان وحده المتصرف بكل صغيرة وكبيرة فى الشعب . فإذا هو عكف فى بيته تعطل كل شىء ، ومس الناس الضر ، وأصيب أصحاب المشاكل والقضايا والشكاوى بنكبات يعجز عنها الوصف»[1] .

ويسرد زعيم حاشد قصة مصرعه نتيجة لمحاولته تحقيق الأخوة والمساواة بين جميع فئات الشعب زيدية وشافعية، هاشمية وقحطانية، والقضاء على كل عوامل التمييز والتفاضل والانقسام ، ثم تقديم مطالب الشعب بصورة جماعية وودية للإمام . فلما علم الطاغية بذلك أرسل إليه يطلبه ويطلب ابنه حميداً ، ولما تردد الأب فى تسليم نفسه أرسل الإمام جيشه ليستبيح حاشداً بأكملها ، وأمر بهدم بيوته وبيوت أقاربه الأبرياء ، وتخريب مزارع البن التى يمتلكها آل الأحمر[2] .

وفى محاولة لعصم دماء حاشد ، سلم الأب نفسه للإمام بعد أن

---

(١) مأساة واق الواق : ص ٢٦٠

(٢) « « « : ص ٢٦٧

أخذ عهد أمان من ولى العهد ، ولجأ الإبن إلى أشراف الجوف الذين أسلموه للإمام بعد أن أخذوا له منه الأمان . ولكن الأئمة لا أمان لهم ولا عهد ، فقد كانوا يضمرون الموت للاثنين معاً .

وفى السجن عاش الأب فى زنزانته مكبلا بالقيود والأغلال وتعرض لأقسى ألوان التعذيب النفسى وأبشعها ، فقد وقع ابنه وفلذة كبده فى أيدى الطغاة الظالمين ، وأتاه الجلاد ليقول له : « أتدرى يازعيم حاشد من أين جئت الآن ؟ إننى جئت من المسنّ » .

فيسأله الشيخ : « أى مسنّ تعنى ؟ » .

فيقول :

« كنت أسن السيف لأن الأمر صدر بذبح ابنك . إننى أنا الذى سأذبحه من قفاه . لقد ذهبت إليه وعرضت عليه السيف الذى سنذبحه به فلما رآه اشمأز وأغمض عينيه ، ويظهر أنه شاب صغير حريص على الحياة ، إن هذا السيف سيفقده عمره كله ، أما أنت فإنه لا يأخذ منك إلا عشر سنوات على الأكثر . فلما رأيت ابنك يغمض عينيه أخذت يده بالقوة ووضعتها على حد السيف ، فلما لمس السيف قال لى :

اتق الله يافلان ، هذا سيف قد صدىء ، فهو لا يقطع العجين فضلا عن لحم صلب فى عنق شاب قوى خشن .

فقلت له : ما أصنع ؟ إن هذا أمر شريف .

قال حميد : إننى سأعطيك بعض النقود ، وسأتنازل لك عن بقية الوجبات الأخيرة فى حياتى فى مقابل أن تختار سيفاً آخر تذبحنى به .

قلت له : لاأستطيع أن أغيِّر السيف ، ولكنى سأصلحه قليلا .

وأعطانى حميد شيئاً من النقود التى كانت معه فقلت له : إن هذه النقود لا تكفى .

قال حميد : اتق الله ، إننى لاأملك غيرها ، وقد تنازلت لك عن وجباتى كلها .

قلت له : ياحميد ، يجب أن تعرف أننى لا أستطيع أن آخذ منك الوجبات كلها لأنى أخشى أن تموت من الجوع ، والمطلوب أن تموت من الذبح . وهناك شيء آخر ياحميد . هناك طريقة القتل ، ولابد لى فيها من المساومة حتى وإن أصلحت السيف .

قال حميد : وما هى هذه الطريقة ؟

قلت له : هل تريد ضربة واحدة أم ثلاثا أم سبعا أم عشرا؟

فامتقع لون حميد وقال : ليس عندى ما أعطيك غير ملابسى. كلها لخذها .

فقلت له : هذا لا يكفى .

ثم تركته وذهبت لإصلاح حال السيف ، وجئت إليك أنت أبوه ، ولعلك ترحمه وترحم نفسك»[1] .

فهل يمكن أن يكون فى الحياة تعذيب أقسى أو أبشع من ذلك التعذيب ؟ وهل يمكن أن تكون هناك وحشية وفظاعة أكثر من تلك التى كان يمارسها الحكم الإمامى البائد فى اليمن بلا رحمة ولا شفقة ولا ضمير ولا إنسانية ؟

لقد أعطى الأب المسكين للجلاد كل ما يملك إشفاقاً على ابنه، وقضى الأيام الباقية له من العمر فى عذاب متصل يصوره لنا أبلغ تصوير قوله :

« لقد ضاقت زنزانتى بتأوهاتى ، فكنت أود أن تنزل على صاعقة أو قنبلة ، ولكنى أنا بقوة جزعى على ابنى وجدت عقلى وقلبى وخيالاتى تجتاز أسوار السجن وتشهد المذبحة بظهر الغيب . أتصور ابنى والجلاد يداعبه كما يداعب الوحش فريسته ، ثم يجره بقيوده وأغلاله إلى ساحة الموت ثم يحدثه عن عدد الضربات

(١) مأساة واق الواق : ص ٢٦٩ — ٢٧٠

ويعرض عليه السيف بعد إصلاحه ، ثم يشد يديه خلف ظهره ، ثم يطلب منه أن يقف على قدميه ويحنى رأسه للضربة. ثم تصورت الضربات الغادرة وهى تخطىء المقتل وتحزّ رأسه مرة بعد مرة » (١) .

ومرة أخرى يعود الجلاد إلى الشيخ المسن بعد أن ذبح ابنه ليحكى له قصة الدقائق الرهيبة التى سبقت الموت فيقول :

« لقد دخلت على حميد وهو فى زنزانته فقلت له: تعال . فقال: إلى أين ؟

قلت له : ألا تعرف ؟ قال : لا أعرف .

وجلست إلى جانبه وتحسست قيوده فوجدتها محكمة ، ثم ضربت بيدى فوق عنقه من الخلف كأننى أداعبه ، فتغير وجهه وقال : اخرج من عندى ، اتركنى . فضحكت ، ولكن يدى ظلت تتلمس مفاصل عظام رقبته ، فأدرك حقيقة الأمر واشتد وجهه امتقاعاً وقال لى : اصدقنى الخبر . هل جاء أمر بقطع رأسى ؟ فحلفت له بذلك وأكدت له الحقيقة ، فقال لى : ألا يمكن أن أعرف أو أسأل أو أناقش سبب قتلى ؟ فقلت له : لا يمكن . قال: أعطنى الأمر لأراه . قلت له : إن الأمر إنما هو إشارة خفية تأتينا برقياً ، وهى إشارة بينى وبين مولاى ، وعليك أن تحضر

(١) ماساة واق الواق: ص ٢٧١

نفسك بغير إهانة . وغيرت له وجهى يا شيخ حسين لأنى مضطر لإنجاز العملية ولا بد من الصرامة وإلا فشلت وعذبته وتعذبت . فقام متثاقلا من مكانه ومشى إلى ساحة الإعدام صامتاً . ولما بلغ المكان المحدد للذبح شددنا يديه إلى خلفه وأردنا أن نعصب عينيه فكأنه أحس بحلاوة الحياة فقال : يا رباعتاه [1] يا جماعة . إننى الآن فى حداثة سنى ، ولو لم تذبحونى فربما عشت ستين أو سبعين عاماً ، وأراكم الآن تريدون أن تنتزعوا منى هذه الأعوام كلها . إننى أرجو أن تعطونى منها خمس دقائق أتمتع بها وأدخن سيجارة واحدة وأصلى لله ركعتين .

فأعطيناه السيجارة وتركناه خمس دقائق ، فكان يدخن السيجارة ويلتفت يميناً وشمالا ، ويتأمل جبال حجة وجدران الساحة ويتأمل السماء والشمس ويتشمم الهواء ويقول : إن الدنيا حلوة، حلوة وجميلة . ثم صلى ركعتين ، ورأيت وجهه يتبلج فى الصلاة ويشرق ، فعرفت أنه شاب صالح ، وخشيت أن تدخل الرحمة إلى قلبى . ولم أمهله بعد ذلك فأمرته أن يقوم ويحنى رأسه ففعل ونفذت الأمر الشريف »[2] .

وينتدب الإمام على محامياً من الجحيم يدافع عن قاتل ابن

---

(1) الربيع هو الجار الذى يحميه جاره بحق الجوار . والنداء هنا للاستغاثة والنجدة .
(2) ماساة واق الواق : ص ٢٧٢ــ٢٧٣

الأحمر ، ثم يصدر حكمه بإدانة الوشاح يا جناه الذى « يزيف الخلافة لنفسه ويغتصب هذا الشرف الجليل بدون حق ، ويجعل نفسه خليفة الله بدون حياء ولا خجل، ثم يرتب على ذلك أموراً فى غاية الخطورة فيرفع نفسه فى مراتب القدسيه إلى مرتبة الله ورسوله ، فيأخذ الآية الكريمة — مثلا — وهى قول الله سبحانه « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض » ، إنه يأخذ هذه الآية فيزعم أن الذين يحاربونه إنما يحاربون الله ورسوله » (١) .

ويصدر القرار الأخير بأن الإمامة خدعة كبرى يجب أن تجتث من جذورها ، وبأن أعظم عقوبة يمكن أن تصدرها محكمة على طاغية هى « بعث الشعب وتجميع قواه وتوحيد كلمته . والشعب وحده هو الذى يستطيع أن يجد الجزاء العادل أكثر مما تستطيعه الملائكة وأكثر مما يستطيعه الشهداء والقديسون ، بل وأكثر مما تستطيع أن تفعله جهنم بكل خطوبها وأهوالها . فويلٌ لمن غضبت عليه الشعوب »(٢) .

* * *

تلك هى رحلة العزى محمود فى ربوع الجنة والجحيم والأعراف

(١) مأساة واق الواق : ص ٢٨٧ — ٢٨٨
(٢) » » » : ص ٣١٦

وعلى طول الطريق كان الخيال الخصب يمد صاحبه بأجنحة قوية يستطيع بها أن يطير فيبعد فى الطيران ، ويرتفع فيمعن فى الارتفاع . ونستطيع أن نرى هذا الخيال العريض بوضوح فى وصف أهل النار ، وفى تصوير الجنة حيث يقول :

« ولما دنا العزى محمود من أرض الجنة خيّل إليه أنها أرض معبدة بالزبرجد الأخضر المصقول تتخللها نافورات باسقة . ولما هبطوا إلى الأرض تبين له أن تلك السفوح الزبرجدية إنما هى نباتات من الزهور والورود والرياحين تغلب عليها ألوان خضر من بعيد، أما من قريب فإنها ملونة تلويناً فنياً يخلب البصر ويسكر العقل والذوق . وفى ثنايا هذه النباتات توجد أشجار مثمرة بما لا عينٌ رأت من الثمار والفواكه . كما توجد فى هذه الأشجار عشاش ضخمة موشاة بألوان مختلفة تلمع وتنطفىء ، وفى هذه الألوان كتابة شعرية قرأها فإذا هى مقطوعات من الغزل على لسان الحوريات يداعبن سكان الجنة ويتغزلن فيهم .

واقترب من إحدى هذه الشجرات فإذا به يسمع صوتاً أخاذاً جميلا هو صوت لإحدى الحوريات، واشتد عجبه حين أطلت عليه حورية رائعة الجمال من إحدى نوافذ العش ، وإذا العش نفسه هو ضرب من ضروب الثمار الفردوسية . ثمار تقطف كسائر الثمار ولكنها لا تؤكل وإنما تعشق عشقاً لأنها ثمرة حية فى كل حبة

منها حوريه تصبح ملكاً لمن يقطفها »[1] .

وقصر الشهيد جغمان فى الجنة « قصر شامخ حجارته من زبرجد أخضر شفاف يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها . واجهات القصر غرف للزوار ذوات أبواب بلورية عريضة ، وأمامها نافورات فى شكل طيور وورود وحوريات تنفث الماء . وتنطلق مع الماء أنغام فردوسية يخيل إلى سامعها أن هذه الجمادات التى تنطلق منها الأنغام تذوب شيئاً فشيئاً من سحر الصوت الذى تطلقه ، وأن هذه المياه الصاعدة إلى الهواء إنما هى ذوب تلك التماثيل »[2] .

وذلك خيال بعيد نسج المؤلف من خيوطه صورة فاتنة رائعة للجنة التى أعدها الله للمجاهدين والصديقين والشهداء والصالحين .

وفى سبحات هذا الخيال لم يقطع العزى محمود كل صلة له بالواقع ، وإنما على العكس من ذلك كان هناك خيط قوى يشده إلى أرض بلاده وإلى المأساة التى تعيشها ، فنراه يسرد مراحل الصراع بين الشعب والحكومة منذ قيام الحكم الوشاحى الأول الذى ضرب القبائل بعضها ببعض ، واتخذ من الإرهاب والقتل وسيلة لتخويف الناس ، حتى نشأت الحركة الفكرية التى قادها

---

(١) مأساة واق الواق : ص ١٥٦ — ١٥٧

(٢) « « : ص ١٥٨ — ١٥٩

الرعيل الأول من الشباب المثقف وأخذت تنفث فى وعى الشعب روحاً جديدة ، إلا أن الطغيان ، استطاع أن يعتقل رجالها ويستعدى عليهم الرأى المحافظ المتدين الذى لم يكن يفهم عنهم إلا أنهم كانوا يريدون اختصار القرآن »[1] .

ولقد كانت تلك الحركة الفكرية هى النواة الأولى لحركة الأحرار المنظمة المعارضة التى قامت بالثورة فى سنة ١٩٤٨ . وإذا كانت الثورة قد انتكست فلقد « كان السبب الرئيسى الضخم فى هذه النكسة أنه رغم التفاهم بين المستويات القيادية فقد ظلت القاعدة الشعبية فى القبائل — رغم تذمرها — جاهلة لأهداف هذه الحركة وعاجزة عن فهمها والتفاعل معها ، فاستطاعت فلول الرجعية الحاكمة أن تستغل القاعدة الشعبية بين القبائل وتثيرها ضد الثورة . غير أن هزيمة ثورة ٤٨ كانت هى الوسيلة العجيبة الفعالة التى نشرت فكرة الثورة على أوسع نطاق ، وهبطت بها من المستويات القيادية العالية إلى القاعدة الشعبية ، تماماً كما فعل الإسلام بالتتار الذين حطموا الإمبراطورية الإسلامية ثم انهزم طغيانهم روحياً فاعتنقوا الإسلام فأصبحوا هم قوته الكبرى »[2] .

وكتطور طبيعى للمرحلة السابقة ، وكنتيجة لنجاح الثورة

---

(١) مأساة واق الواق ص ٦٢

(٢) « « « : ص ٦٢ — ٦٣

العربية في مصر سنة ١٩٥٢ ، ظهرت في اليمن تيارات متطاحنة برزت على مسرح الحياة في ثورة سنة ١٩٥٥ التي لم يكتب لها البقاء سوى أيام معدودات .

«وفي إبان هذه النكسة المحزنة ، ومن وراء هذه الهزيمة على السطح ، كان هناك مد ثورى في الأعماق يكتسح القاعدة الشعبية اكتساحاً خاطفاً أسرع من أن تستطيع القيادة الثورية بوسائلها المحدودة توجيهه والتحكم فيه . فانفجر هذا المد عدة انفجارات تلقائية في القاعدة الشعبية بين أفراد الجيش ، وفي القاعدة الشعبية بين القبائل. وكان كل ذلك خارج نطاق السيطرة القيادية للأحرار»(١).

وإلى جانب تصويره لمراحل الصراع الداخلي في وطنه، يقلب الزبيري في صفحات التاريخ ، ويلتقط منها صورا شنيعة للتعذيب والوحشية التي كان يمارسها الأئمة الآثمون ، فيعرضها على الدنيا بأسرها من خلال «مأساة واق الواق» ، فقد حدث مرة أن أحرق مجهول باباً خشبياً من أبواب العاصمة اليمنية ، فاتهم الإمام قبيلة من القبائل وأخرج ستين من أطفالها المرهونين (٢) عنده فقطع أيديهم جميعا (٣) .

---

(١) مأساة واق الواق ص: ٦٤ — ٦٥

(٢) كان الأئمة يأخذون من كل قبيلة عدداً من أبنائها كرهائن عندهم ليضمنوا استمرار ولاء هذه القبائل لهم .

(٣) مأساة واق الواق : ص ١١٠

وحدث مرة أخرى أن ولياً للعهد أراد أن يعلن جبروته وطغيانه فنكل بمنطقة من المناطق وقطع ألف رأس من الرءوس وأصدر أمره إلى ألف من الأسرى أن يحمل كل منهم فى يده رأسا من رءوس إخوانهم المقطوعة ، وأمر أن يسير مع كل أسير أحد الجلادين .

وسار ولى العهد فى هذا الموكب الحافل مختالا فخورا . فلما بلغ الميدان الذى يشرف عليه قصر أبيه طلب منه أن يطل من شرفات القصر ، فلما رآه مطلا عليه ، أمر الألف جلاد أن يضرب كل واحد منهم رأس الأسير الذى يحمل فى يده رأسا ، فرأى والده الإمام ألفى رأس تسقط دفعة واحدة » (١) .

وهاتان صورتان من صور الوحشية التى كان يمارسها أئمة اليمن والتى عرض الزبيرى ألوانا رهيبة منها ليكشف أمام الناس وأمام التاريخ خبايا هذا الحكم الفاسد المتعفن الذى لا يمكن أن يصبر عليه شعب من شعوب الأرض .

وإن شئت أن تكتمل الصورة البشعة فى ذهنك وضوحا فاقرأ حديث الزبيرى عن سجن حجة الرهيب الذى جعل فى أعماق الأرض حيث الرطوبة والأوبئة والتعذيب والتجويع ، وكيف كان يعيش الأسرى والمساجين حياتهم فيه :

---

(١) مأساة واق الواق : ص ١١١

«كنا ننام ونمرغ أجسادنا العارية على الأوحال والأقذار ، وتختلط فضلات أجسامنا بأوحال الأرض التى ننام عليها فتتعفن وتتعفن الأرض من تحتنا ، وتنتشر الأوبئة ويفتك الجوع بنا وتجد الفيران فى مهادنا القذر بحبوحة من المرتع الخصيب . ثم نجد نحن فى الفيران ما يسد الرمق ويمسك علينا حياة — ولو كحياة الفيران — فنأكلها ،ويجىء الموت فيحصد رجالنا سريعا كأنه مبعوث الطغاة والجلادين ، حتى لم يبق منا إلا أفراد يعدون على الأصابع تكيفت جثثهم العنيدة بهذه البيئة الرهيبة ، وتعايشوا مع الفيران والوزغ والأقذار والجلادين ، وفسدت ذممهم وضمائرهم وأصبحوا وكأنهم مخلوقات لم يصنعها الله وإنما صنعتها روح الوشاح » (١) .

فهل يمكن أن يكون أكثر من هذا تعذيب وامتهان لكرامة الإنسان وآدميته ؟ وهل يوجد فى سجون العالم كله سجن بهذه الصورة البشعة النكراء ؟

كلا ، فلا بشاعة أعظم من تلك البشاعة ، ولا ظلم أشنع من هذا الظلم ، ولا إجرام أعتى من ذلك الإجرام الذى كان يمارسه أئمة اليمن فى حق الشعب البائس المسكين .

* * *

وإذا كان لنا أن نقول شيئا فى ختام حديثنا عن « مأساة

(١) مأساة واق الواق :ص ٩١ — ٩٢

واق الواق ، فذلك هو أنها قد نشرت صحفا مطوية من التاريخ اليمنى وهى صحف قضى عليها الحكام بالكتمان كى تنسى على مر الزمان، فجاء الزبيرى ونفض عنها غبار السنين ووضعها فى مكانها من المأساة الخالدة التى رزحت أمته تحت عبئها القرون والقرون . وسوف تظل تلك المأساة عملا أدبيا رائعا ووثيقة تاريخية هامة لا غنى عنها لكل من يدرس تاريخ اليمن فى العصر الحديث .

الإياب

ومع فجر السادس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٦٢ استقبل اليمن فجراً جديداً طال ترقبه وانتظاره . ومع الصباح كان صرح الإمامة ينهار ، وكانت جماهير الشعب تطأ بأقدامها كل آثار العبودية والاستذلال ، وتعلن بأعلى صوتها مولد جمهورية عربية يمنيـة لأول مرة فى التاريخ .

ومن القاهرة ينطلق الزبيرى ومن معه من أحرار اليمن إلى صنعاء ليشهدوا الحلم الكبير الذى داعب أخيلتهم سنين طويلة وقد تحقق ، وليعيشوا فى رحاب الدولة اليمنية التى كانوا يطمحون إليها منذ الصبا وبواكير الشباب . وعلى إثر وصوله إلى المطار يخر الزبيرى ساجداً يقبل الأرض الحبيبة ويأخذ بيده حفنة من ترابها يشم شذاه الذى حُرم منه سنين طويلة ، ويعلن على الملأ أن لا تشرد بعد اليوم ، وأنه لن يبرح وطنه حتى ولو دفع حياته ثمناً لذلك إذا لم تنجح الثورة .

وعلى الأرض الحبيبه الطيبة يتألق نجم الزبيرى كزعيم جماهيرى ويبدأ مرحلة انطلاق سياسى واسع المدى ، فقد أسندت إليـــه

وزارة التربية والتعليم . وبوصفه أحد الرجال الذين كانت قضية اليمن مثلهم الأعلى على مدى أكثر من عشرين عاماً ، عُيّن فى أبريل سنة ١٩٦٣ (٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٨٢ هـ) عضواً فى أول مجلس رئاسة للجمهورية الجديدة .

ونظراً لما يتمتع به من شعبية بين قبائل اليمن كلها ، نراه يُرسَل مع عبد الرحمن الإريانى وعبد السلام صبره (عضوى مجلس الرئاسة) ومع عدد من المشايخ إلى حجة ورداع وخولان وأرحب لجمع ما تشتت من شمل القبائل هناك .

وعندما شكل الوفد اليمنى الذى سافر إلى القاهرة فى أواخر مايو سنة ١٩٦٣ لتنسيق الوحدة بين مصر وسوريا والعراق واليمن، اختير الزبيرى عضواً فى هذا الوفد .

وفى نفس هذا العام يعقد مؤتمر عمران من أجل إقرار السلام وإصلاح أجهزة الحكم وتدعيم قوة الجيش . ويلقى المؤتمر تجاوباً شعبياً واسعاً فى جميع أنحاء البلاد ، فتتدافع جماهير الشعب إلى عمران (بشمال اليمن) لتلتقى بزعمائها وعلمائها وقادة جيشها . وهناك يبدأ المؤتمر الكبير أعماله وينتخب الزبيرى رئيساً له ، فيبذل غاية جهده وأقصى طاقته من أجل إنجاح المؤتمر كوسيلة لحقن الدماء وإقرار السلام بين القبائل الموالية للحكومة والقبائل المنشقة عليها . ويصدر المؤتمر قراراته وتوصياته ، ويعترض رئيس الدولة على بعض تلك القرارات فتشق القبائل عصى الطاعة على

الحكومة ، ويبدأ النزيف الدموى من جديد. وهنا يتجه المخلصون من أبناء اليمن — ومنهم الزبيرى — إلى تشكيل جيش يضع قرارات مؤتمر عمران موضع التنفيذ ، ويوقف سيل الدماء التى بدأت تجرى بدون حساب .

وإبان وزارة الجائفى التى شكلت فى أواخر أبريل سنة ١٩٦٤ وتولى فيها الزبيرى منصب نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف والتعليم، عقد مؤتمر اركويت بالسودان لبحث قضية اليمن ، وضم المؤتمر عناصر يمنية جمهورية ، وعناصر أخرى ملكية ، ومراقبين من السعودية ومصر . وعلى الرغم من أن الزبيرى لم يكن من المتحمسين المؤتمر والمؤمنين بجدواه ، إلا أنه شارك فيه كعضو فى الوفد الجمهورى سعياً وراء بصيص من الأمل فى السلام والاستقرار (١) .

وتتتابع الأحداث سراعاً ، ويتأزم الموقف بين الحكومة والأحرار ، فتظهر الدعوة إلى مؤتمر خمر للسلام (٢) ، ويقدم الزبيرى استقالته من الوزارة فى رمضان سنة ١٣٨٤ هـ (يناير سنة ١٩٦٥) . وفى قصيدة « الكارثة » وهى آخر قصيدة قالها ، نتبين دوافع تلك الاستقالة . فهو لا يرضى عن الحكام لأن :

روح الإمامة تسرى فى مشاعرهم — وإن تغيرت الأشكال والأسس

---

(١) تمخض هذا المؤتمر عن عقد مؤتمر آخر يضم الملكيين والجمهوريين حدد مكانه فى صعده ثم عدل عنها إلى حرض، وانعقد المؤتمر فى ٢٣ نوفمبر ١٩٦٥.

(٢) انعقد هذا المؤتمر فى الفترة من ٢ إلى ٥ مايو سنة ١٩٦٥.

وهو لا يخفي سخطه وتمرده على الحاكمين وإنما يهاجمهم في صراحة وعنف فيقول :

متى حكمتم بقانون وقد قتل الآ
لاف أو سحقوا كالدود أو كُنِسوا
كفى خداعاً فعين الشعب صاحية
والناس قد سئموا الرؤيا وقد يئسوا
لِم القوانين ؟ فن الموت في يدكم
والحقد رائدكم والحق مرتكس
وأنتمُ عودة للأمس قد قُبر ال
طغاة فيكم وعادوا بعد ما اندرسوا
وأنتم طبعة للظلم ثانية
تداركت كل ما قد أهملوا ونسوا

ويمضي في هجومه العاتي حتى يضع يده على موطن الداء فينكأ الجراح ويفضح أساليب الحكم . يقول :

من حظكم أن هول الأمر مستتر
عنكم ، وأن شعاع الشمس منطمس
وأن صوت الخراب الفظ أغنية
ترتاح أنفسكم فيها وتأتنس

هناءة الحكم أن أطغاكم "بله"
عن الكوارث واستغواكم حرس

* * *

قانونكم لاغتصاب الحكم مهزلة
كبُرهات إمام مسه الهوس
والحكم بالغصب رجعى نقاومه
حتى ولو لبس الحكام ما لبسوا
والظلم يعلنه القانون نفهمه
ظلماً، وإن زينوا الألفاظ واحترسوا

وهكذا نرى أن الفجوة بينه وبين أجهزة الحكم كانت قد ازدادت فى سنة ١٩٦٥ إلى درجة يصعب معها تجنب الصدام ويصبح من الحكمة أن يعتزل الحكم ويعود إلى صفوف الجماهير التى أحبته وتعلقت به ، يحاول أن يلم شعثها ويجمع شملها ويوحد صفوفها . ومن أجل هذا نراه بعد فترة قصيرة قضاها فى صنعاء يخرج إلى الجبال ينشر دعوة السلام بين القبائل ويدعو إلى «حزب الله» الذى يجمع القبائل على الحب والإخاء والوحدة والسلام .

وأكثر من هذا ، نراه يعتزم السفر إلى مكة ليعرض المشكلة اليمنية على المؤتمر الإسلامى الذى كان مقرراً عقده هناك ، لولا

أن مؤامرة دنيئة لحقته إلى جبل بَرط ، وسددت إليه طعناتها الآثمة فخر صريعاً فى ساحة الشرف والنضال فى ٣٠ مارس سنة ١٩٦٥ (ذى الحجة سنة ١٣٨٤هـ) .

وهكذا سقط الزبيرى شهيد جهاده ، وسقط معه أمل كبير من آمال أمته فى سلام يسود بين القبائل على اختلاف ميولها ونزعاتها السياسية . سقط الزبيرى فسقطت معه الراية التى كان يحملها والتى كان يلتف حولها اليمنيون ويسيرون من خلفها كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

بعد المماتْ

لقى الزبيرى مصرعه فى وقت كانت اليمن أشد ما تكون حاجة إليه . فقد كانت البلاد على فوهة بركان يوشك أن ينفجر ، وكان مؤتمر خمر الذى ظل الرجل يعد له ويدعو إليه هو الأمل الباقى فى إخماد نار الفتنة وإقرار السلام على أرض اليمن .

ولقد كان موت الزبيرى فى حد ذاته مأساة حزينة وطعنة قاسية نفذت إلى صميم قلوب الأحرار، بل إلى صميم الشعب اليمنى كله . فقد أخلص الرجل حياته وفنه لبلاده التى أحبها ولم يشرك بها فى الحب شيئا آخر . وكأنما أراد الله لتربة هذه البلاد أن ترتوى بدماء ابنها وشهيدها البار ، وأن تبقى تلك الدماء ندية عطرة يفوح شذاها فيؤرج الجو ويسرى مع الحياة .

وهناك على سفوح الجبال ينبعث صوت الزبيرى من وراء الحياة يقول :

فإن سلمت فإنى قد وهبت له   خلاصة العمر ماضيه وآتيه
وكنت أحرص لو أنى أموت له   وحدى فداءً ويبقى كل أهليه
لكنه أجل يأتى لموعده   ما كل من يتمناه ملاقيه

وبموت الزبيرى فقدت اليمن الأب والرائد والزعيم والملهم - بل لقد كان الزبيرى بالنسبة لليمنيين أكثر من أب وأكثر من رائد وأكثر من زعيم. وحين ودعه الشعب اليمنى إلى قبره ودع معه أملا عزيزا من آماله فى الوحدة والمحبة والسلام. فقد كان الرجل محبوبا من الناس، من كل الناس. يحبه الملكيون ويحبه الجمهوريون. يحبه اليمينيون ويحبه اليساريون. يحبه الشماليون ويحبه الجنوبيون. يحبه المدنيون ويحبه القبليون، يحبه الزيود ويحبه الشـــوافع. الكل يجمعون على حبه وتقديره وإجلاله، والكل يصيخون له ويستجيبون لدعوته المخلصة ويقدرون له بطولته النضالية على مدى ربع قرن من الزمان قضى معظمه شريداً بعيداً عن وطنه، ينفخ فيه من روحه ويهتف به من بعيد ليوقظه من سباته العميق.

ولأنه كان موضع ثقة الجميع، فقـد كان الأمل كبيراً فى أن يستطيع الزبيرى بدعوته الخالصة المخلصة النقية الطاهرة أن يعصم دماء اليمنيين وأن يجمعهم على كلمة سواء. والحق نقول إن الرجل قد ضحى فى سبيل هذه الغاية بكل شيء، حتى الحياة إلى آخر نفس فيها.

وعندما سقط الزبيرى من على مسرح الحيـاة سقط وراءه الكثيرون، وعندما أريق دمه أريقت دماء غزيرة وعزيزة على أرض اليمن. فقد كانت البـلاد تمر بفتنة قبل مصرعه، وبموته عصفت بها أحداث دامية، فأزهقت أرواح، وتطايرت رءوس

وتناثرت أشلاء ، وأصبح الزبيرى فى نظر الشعب اليمنى كله رسول السلام وحبيب الجماهير .

وهكذا كانت حياة الزبيرى حافلة بالجهاد والنضال والتضحيات ، وكانت خاتمته أروع من حياته ، وكانت ذكراه أروع من خاتمته . لقد مات شهيد نضاله من أجل الوطن كله فلم يكن عجيباً أن تبكيه الملايين من الرجال والنساء والأطفال فى جبال اليمن وهضابها وسهولها ووديانها ، وأن يفتح له التاريخ اليمنى أوسع أبوابه ، وأن يضع بين يديه أنصع صفحاته ليسجل فيها بحروف من نور :

أصبو إلى أمتى حبا وأبعثها
بعثاً وأبنى لها بالشعر بنيانا
أصوغ للعُمْى منه أعيناً نزعت
عنهم وأنسجه للصم آذانا
وما حملتُ يراعى خالقاً بيدى
إلا ليصنع أجيالا وأوطانا
يخاله الملك السفاح مقصلة
فى عنقه ، ويراه الشعب ميزانا
فهاك يا أمتى روحاً مدلهة
عصرتها لخطاك الطهر قربانا

كأساً من الشعر لو تسقى الشموس بها
ترنحت ، ومشى التاريخ سكرانا

* * *

وإذا كان لنا أن نقول شيئا فى ختام هذا الحديث عن الزبيرى شاعر اليمن ، فذلك هو أن الأيام ستأتى حتما بمن يكتب عنه مناضلا عربيا ، وزعيما سياسيا ، وشاعرا مبدعا ، وكاتبا فذا . أما بالنسبة للشعب اليمنى فسيظل الزبيرى علماً من أعلام نضاله ، وقمة شاهقة من قمم مجده ونبوغه ، وسيظل اسمه رمزاً رائعاً للبطولة والتضحية والفداء ، وسيظل شعره نشيد اليمن الباقى على الأيام .

فهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٢٦/١٩٦٨

مطبعة الكيلانى
٢٢ شارع غيط العدة ـ ت ٩٢٨٥٩٨